

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

على العهد

علم قراء هذه التراجم وجهتنا التي تتجه إليها في كتابتها ، ولا نحسب أن أحداً من تتبعوها - أو تتبعوا مضمونها - ينتظر منها بحثاً غير يعونها التي عيناها ، فليس يعتينا منها سرد الحوادث ولا استقصاء البيان عن فترة من السنين ، وإنما يعتينا من الحادثة التي نعرض لها ومن الفترة التي استحيينا أنها وسيلة إلى مقصد واحد : وهو التعرف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة والمقربة أو حالة من أحوال النبل والأريحية ، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإننا نجازه بجلالة تحيط بأطوار التاريخ الإنساني ، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإننا نجازه بجلالة فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنساني وتخرجه من غمر التيه والظلمة ، ونسلك به مسلكاً غير مسلك التخطيط والفضلال .

ونحن نقس أثر هذه التراجم بقياسين متقابلين ، بل متعارضين متناقضين ، ولكنهما ينتهيان إلى نتيجة واحدة .

نقس أثرها بالرضى والقبول من الواقفين ، ونقيسه بالسخط والمنفور من الخالفين ، وكلاهما دليل على أثر يقتبط به ونستزيد منه : دليل على أن التراجم رمية أصابت مرماتها ، وهذا كل ما نبغيه .

ومن الملاحظات التي تقتبط بها خاصة أن جانب الرضى عن هذه التراجم غير مقصور على أبناء دين واحد أو أبناء نحلة واحدة . . . فتراجمتنا اعظماء الإسلام قد اطلع عليها وتتبعها أناس كثيرون عن لا يدينون بالإسلام ، وترجمتنا لغاندي قد كان أكثر قرائها من المسلمين ، ومولاه قد عرفوا وجهتها ولم يخرجوا بها عن سبيلها ، فليست النفس الإنسانية ملكاً لأبناء دين واحد ، وليس الكشف عن أسرارها وأغوارها فريضة شرع واحد أو عرف واحد ، وما من شيء يعمل للدين نفسه معنى إن لم تكن النفس الإنسانية ذات معنى وذات قيمة علاقة أصيلة بهذا الوجود أجمع ، فلا يغفل

To:

WWW.AL-MOSTAFA.COM

الملازمون لكل صفحة نقيية من صفحاته ، الماكفون على هدم كل ما يباه في تاريخه الطويل من قيم الأخلاق وعقائد الخير والفلاح ، الذين يعملون ما لا يعمل إلا عدو منير على الأرض يتمقب بغايا أهلها كما يتمقب العدو للود جنساً من ألد الأعداء لجنسه ، فلا يسره شيء كما يسره أن يرجع إلى ماضيه وحاضره بالتشويه والتخريب ، وذم الحيد منه وتسجيل الذميم المريب .

ويبلغ السخ بهؤلاء المساكين أنهم يخلصون في بعضاتهم اخلاص الجنسين المتعادين بالطبيعة ، فلا يقنعون بما يجدون من العيوب والأدناس بل يتجسسون عليها ويلحون في تأويلها ، ولا يطيب لهم شيء كما يطيب لهم أن يظلموا الشاء على بطون البطل وتغذية الشهيد وآثار الكرم ، فيردوه إلى الزبانية والمهانة ، وتحليل الأمور بأسوأ الملل ، وتفسيرها بالبيع البواست والأغراض . . . ومثل هذه الحاجة في تاليف تراث الإنسانية كله بالأرذال والأدناس لا تصدر إلا من طبع سقيم وخليقة عوجاء ، فيجوز لكل صاحب عقل أن يفهم بعقله علل الأعمال ساذجة أو مسفة ، وعامة أو خاصة ، ومخلوطة بالآفة أو خالصة للإيثار ، ولكن الهيام بتحقيق كل عظيم وإهام كل شئ والعامة النتيجة لتغليب الخسة على النبل ونبش السمعة الماثورة عن جرائم النش والقلدي ليس المرجع فيه إلى فهم ودراسة ، ولكنه يرجع إلى مسخ في الكيان يسلمح البطل به في مسالمح العدو الشين لنوع الإنسان .

وما كان في وسع إنسان حي أن يسخ الحياة كما يريد ما هؤلاء المسخاء المنكودون ، ولكنهم قفلوا الثقة بالحياة اللتي ففوضوها ببديل منها لا يقنى عنها إلا إلى حين . . . إن المنحدر من القمة إلى الهاربة يتحرك في الحداره ، بل يتحرك سريعاً إلى قراره ، وهو في حركته هذه أسرع من الصاعد إلى القمة . . . بجهده وهدايته ، وأسبق منه جداً إلى غايته بل نهايته . . . إلا أنها حركة الصلب بالحركة على الرغم منه ، فلا رجة للمقابلة بين الصاعد الجاهد ولهاياط المنقلب كما يتقلب الجلود ، وإن لا ين يراههما أتبعهما منحركان وإن لهاياط منهما أقد من الصاعد على العدو والجريان . .

وقد استل مكان الثقة من نفوس هؤلاء المسخاء بسخائم المقت والكراهية ، فكانت لهم عوضاً بنس العوض : كانت لهم عوضاً كعوض الحركة لهابطة من الحركة للصاعدة ، وليس أدل على ضرورة الثقة للإنسان في اجتماعه وانفراذه من

معتقد عن هدى قديمة حين يؤمن بجانب من جوب عظمتها أو جانب من جوانب إنبل والأريحية فيها . . . والسؤال الذي يسلم من يعرف المسألة كلها هو :

هل تستحق الحياة أن نجهاها ؟

فإن كانت حياة الإنسان أهلاً للثقة بها والإيمان بقدرها فاجواب نعم ، وإن لم تكن كذلك فلا جواب للسؤال غير اليأس والقسام والاحلال ، بل نحن نرى أن الشاكين والتزوددين يثيرون إلى طريق الأمل والرجاء كلما لسوا للنفس الإنسانية جلوداً صميقة في أصول الحياة ، وعده الجلود نلمسها لساً كلما علمنا أن النفس الإنسانية قابلة لعمل عظيم ، وكلما علمنا أن قوة الاعتقاد بالخير هي نفسها عمل عظيم . وليس الخلاف إذن بين دين ودين ، أو بين مله وملعب وملعب أو بين فلسفة وفلسفة ، ولكنه خلاف بين حياة لها جلودها وحياة مستأصلة من جميع الجلود . وهو بمثابة أخرى خلاف بين حياة لها معنى وحياة فارغة من كل معنى ، ولو كان هذا المنى من منحور عارها الملققة وأباطيلها المزجاة .

نقيس أثر هذه التراجم بالرفض من هؤلاء المؤمنين بمعنى الحياة هؤلاء الباحثين عن معناها . . .

ونقيسه كذلك بسخط الساططين وغيظ الغطين ، وكلما اشتد هذا السخط واضطرم هذا العيظ علمنا موقع الرية من الهدف الصميم ، فهو يوقها الذي أصيبا به القتل من ذلك المسكر الذي يسمى نفسه يختلف الأسماء ولا يعشق عليه اسم كما يعشق عليه اسم أعداء الإنسان . .

وإنما تصدق الأسماء حيث تصدق على الصفات والأعمال ، وقد سمي بأعداء النوع الإنسانى قديماً معانسر من الخلق كانوا يكرهون النعمة ويمانون السرور ويتحيزون معانسة الناس ، ولكنها تسمية لم تكن على صواب لأنهم كرهوا النعمة وعادوا السرور إيماناً بنعمة أشرف من جميع النعم وشوقاً إلى سرور أرفع من جميع السرور ، ثم تحيزوا معانسة الناس ونبرأ بقسمائهم عن العيش الذي لا يعرف النعم والسرور إلا في أحضان الرذائل والشهوات ، فمن شاء فليسم هؤلاء التزئتين بما شاء من الأسماء إلا أن يسمهم بأعداء الإنسان . .

أما أعداء النوع الإنسانى حقاً فهم الجريهون على تصغير كل عظيم فيه ،

الفصل الأول

بين القيم والحوادث

وما كانت سيرة الخليفة الثالث - ذي النورين - أولى السير بالشواهد على المنعكس التي تلازم تاريخ العقيدة في أطوارها الأولى ، ولا سيما أطوار التحول في طريق الاستقرار .

وأبرز هذه المنعكسات في تاريخ العقيدة أنه تاريخ قيم ومبادئ وليس بتاريخ وقائع وأحداث ..

فالوقائع والأحداث تتجابه في العصور المتطاربة ، ولو أننا تخيلناها معروضة في الصور الصامتة لا وجدنا من فارق يذكر بين الوقائع والأحداث التي تفصلها من مسافة الزمن آلاف السنين ومن مسافة المكان آلاف الفراسخ ؛ كلها صورة متكررة من حيث ظواهرها وأعراضها البادية للعيان ، ولكنها تختلف اختلافاً بعيداً حين تنفذ من ظاهرها إلى باطنها ، أو حين تنفذ من حركاتها المكشوفة إلى القيم النفسية التي تكمن وراءها ، وإلى المدعوى التي تدور عليها ، ولو كانت من دعوى الجليلي التي يصدق عليها في بعض الأحيان أنها كلمات حق أرادت بها أباطيل .

فالحوادث التي تدور على طلب الأسطورة غير الحوادث التي تدور على طلب الحقيقة ، ولو كان طلب الحقيقة أكثرية يتعمل بها التمثل للغاية في نفسه يستورها ويمثل ما عداها .

فإذا كان التمثل بالحزبية مبطلاً في دعواه فهناك فارق صحيح بين الممارك التي تذكر فيها الحزبية حقاً أو باطلاً والممارك التي لا ترد فيها على لسان أحد ولا تخطر بباله . فلولا أنها أصبحت شيئاً يهتم به الناس وتتأزعره لا ذكرها الصادقون ، لا المبالون . ومتى أصبحت الحزبية قيمة من القيم المحسوبة في حياة الأمم فهناك دليل عليها من يتعمل بها صادقاً ويتعمل بها كاذباً ليخدع الناس بها عما يريد من وراءها .

حاجة هؤلاء إلى تعريفها بذلك الثمن الثقيل ، وأنه لجية تقبل في الحقيقة ، فإنه لهم ألا تتحار بغير إرادة الانتحار .

ونحمد الله على نصيبنا من هذه الكراهية كما نحمده على نصيبنا من تلك اللقمة ، فهذه وثلك كلتاها مقياس صادق لأثر هذه التراجم التي نزيدها اليوم ترجمة جديدة ، وستزيدنا بحسنة الله كلما اتسع الوقت وأحسننا الورق من هنا والكراهية من هناك .

إن سيرة الخليفة الثالث غطت من أقاطع متعددة وتخرت بها الدعوة الإسلامية من سير الخلفاء وغير الخلفاء ؛ أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وأبي عبيدة ، وطلحة ، وسعد ، وعمر ، ومنالهم من الصحابة والتابعين ، ما منهم إلا من كان عظيماً بحزبه وعلماً من أعلام التاريخ ، فأين كان موضع هؤلاء من العظمة ومن تاريخ بني الإنسان لو لا العقيدة الدينية ولو لا الرسالة المحمدية ؟

ليقل من نشأ من فلاسفة التاريخ ما يشاء في التعليل والتحليل والتفخيس والتفصيل ، فمهما يقل القائلون ومهما يشرح الشارحون فليس من السهل على عقل رشيد أن يزعم أنها كلها خدعة وهم في رؤوس أناس جاهلين ، ولا حاجة هنا إلى الفلسفة ولا إلى الخلق ولا إلى الجدول الطويل ، فالقول الفصل بعد كل قول ووراء كل شرح إنا ألهم الخادع في رؤوس الجاهلين خير ألا يكون . وماذا يبقى من تاريخ الإنسانية لو حذفنا منه هذه العوامل الحية وقتلنا مع القتالين إنها وهم من الأوامر كان خيراً لها إنه لم يكن بعده ما جرى في مجراه ؟

وفي هذه لسيرة على ما ترجو ، وعلى خلاف ما يتخطر في بال الكثيرين لأول وهلة شواهد على هذه القيمة الكبرى أكبر من شواهد أخرى ، فلملها لا تبرز لنا عبقرية كعبقرية الصديق أو الفاروق أو الإمام ، ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحة لا تطوى ، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها إلى باعث غير العقيدة والإيمان .

وفي سيرة عثمان رضي الله عنه صدمة عيفة تواجه كل باحث في تاريخ صدر الإسلام ، وتلك هي قتله البشعة وهو شيخ وقور جازز الشامين .

لم يكن عثمان أول خليفة قتل . فإن الفاروق عمر بن الخطاب قتل قبله غيلة وهو يقيم الصلاة .

ولكن مقتل عمر لم يكن صدمة في تاريخ العقيدة .. قتله غلام دخيل على الإسلام ومن ورائه عصاية تدين بغير دينه وتكفر منه ما عمله لإقامة ذلك الدين ، فلا غرابة ولا صدمة ، ولا شيء فيه غير الفاجعة التي تفجع نفوس المسلمين ..

أما تلك القتلة البشعة التي انتهت بها حياة الخليفة الثالث فشيء غير هذا ، بعيد عن هذا في صدمته الفاجعة لن يتابع تاريخ العقيدة الإسلامية في أطوارها الأولى .

لم يمض جيل على الإسلام ويقتل خليفة المسلمين هذه القتلة ؟ .. فمساذا صنعت هذه العقيدة إذن بنفوس الحاكمين والحكومين ؟ .. وماذا تغير من فتكات الجاهلية بعد جهاد المؤمنين وإيمان الكافرين ؟

والسؤال صدمة عيفة ..

ولكنه قائم على خطأ جسيم ، وإن يكن خطأ قريب التصحيح .

فالعقيدة لا تبطل الخلاف والنزاع ولا تختتم الوقائع والأحداث في التاريخ ، ولم يحدث قط في دعوة إصلاح في الدين أو غير الدين أنها قسمت التاريخ إلى عهديين : عهد سابق كان فيه نزاع وكانت فيه أحداث ، وعهد لاحق يبطل فيه النزاع وتتقضى فيه الأحداث .

لم يحدث هذا قط ولا يحسن أن يحدث ، فإنه لو حدث لكنت العقيدة المصلحة شللاً معطلا لحياة الأمم معوقاً للتاريخ في مجراه المطرد إلى غير قرار ..

إن العقيدة لا تلغى الحوادث والخصومات ، ولكنها تجدد القيم التي تدور عليها الحوادث والخصومات .

ولست الخصومات شر ما يبتلى به الناس ، فشر منها الحسنة التي ترضى بالدون ، وشر منها الوفاق على الغش والمهانة ، وشر منها شلل الأخلاق الذي لا يبالي صاحبه ما يحسن وما يقيح وما يرضى وما يسوء ، وشر منها الحياة بغير قيمة تستحق الخلاف عليها ويغير معنى يتسع للبحث فيه ..

فليس مطلوباً من العقيدة أن تبطل الخصومات ، ولكنما المطلوب منها أن ترتفع بالنفوس عن الخصومة في غير شأن ، أو ترتفع بها عن الخصومة في شأن مزيل ضئيل ..

وعلى هذا ينبغي ألا تكون الخصومات والأحداث هي مدار البحث في تاريخ هذه الفترة ، بل ينبغي أن يكون مدار البحث على القيم والمبادئ التي دارت عليها تلك الخصومات والأحداث .

ولا نقول إن الفاجعة إذن تهون ..

وغاية ما نقوله أنها تفهم على وجهها الصحيح ، وأنها تفهم على وجه لا يريب في عمل العقائد وعمل العقيدة الإسلامية على التخصص .

لقد كان مدار الخصومة على محاسبة الإمام : محاسبة الرعية لإمامها ، ومحاسبة الإمام لنفسه ، وكل أولئك شيء ، جديد في التاريخ ، وكل أولئك شيء يقيم ويقعد في حياة الأمم ، ولا سيما حياتها في أطوار العقيدة الأولى .

أين كان أبناء الجاهلية من حق الحساب بين الحاكم والحكوم ؟

أما في البداية فقد كان الحساب كله على شريعة النار والانتقام وإغارة القبيلة الكبيرة على القبيلة الصغيرة ، وكان الغالب على الفرد أن يعيش في كنف قبيلته ، تحميه إن استطاعت ، أو تخلعه إن عاجزت عن حمايته . وقد شاع في العصور الحديثة كلام كثير عن الحرية البدوية ولم تفهم على حقيقتها مع كثرة الكلام فيها ، فما كانت الحرية البدوية قط قائمة على حق إنساني تحميه الشرائع والآداب ، ولكنها كانت أشبه شيء بانطلاق المادة حيث لا عائق لها ما حولها ، ومثل هذه الطلاقة طلاقة العصفور في قصائه والحيتان الأبد في صحرائه : طلاقة المادة حيث لا حواجز ولا حدود ..

وأما الحكومات التي قامت في الجزيرة العربية ، على نحو من نظام الملك والإمارة ، فقد كانت شريعتها - على خلاف المظنون - طغياناً مطلقاً من جميع القيود ، وكان بعض ملوكهم يتخذ من أهوائه ونزواته شعائر يدين بها الناس في مسائل الحياة والنوت ، فكان التلذذ من ماء السماء يجعل له يوم نعيم ويوم يؤس ، ويقتل كل من يسوقه إليه الجوع في يوم يؤسه ولو كان عابر طريق ، وكان يسكر ويأسر بالقتل فيقتل لساعته ولا يدري بعد إغاثته فيم كان هذا العقاب إن صح أن يسمى بالعقاب . وحدث أن حجر بن الحارث فرض على بني أسد إتاة نقيلة

قتلوا عليها فاستباح أحياءهم، واعتقل رؤسهم، وأقسم ليقتلهم بالمعصا هوانا بهم عنده أن يقتلهم بالسيف أو السلاح، فسموا من أجل ذلك بعبيد المعصا وقال شاعرهم عبيد بن الأبرص يستنفع فيهم:

ومعتهم مجدا فقد حلوا على وجل نهامه
إما تركت عتف سوا أو قتلت فلا ملامه
أنت الملك فسوقهم وهم العبيد إلى القيامة

وكان عمرو بن هند يكلم الناس من وراء ستور، وكانوا يصفرون مثل بكليب وأثل في عزته فيقولون عن العزيز البالغ في العزة: «أعز من كليب وأثل»... لأنه كان يحمي الكلا فلا يقرب حماه، ويبر بالمكان يعجبه فيرمي عنده بكليب وينادي بين القوم إنه حيث بلغ عوازه كان حمى لا يرمى... وكانوا يقولون: «لا حمر يوادى عوف» لأنه كان من عزته يقهر كل من حل يواديه، فكلمهم عنده كالعبيد...

وأقبح من ذلك ما روى عن علقم ملك طسم وجديس، فإنه كان يأمر ألا تزف الفتاة إلى بعلها قبل أن تزف إليه، وفي ذلك تقول إحدى هؤلاء الفتيات:

أيجسل ما يؤتى إلى فتيانكم وأنتم رجال فيكم عدد الرمل؟

إلى أشياء هذه الفظالم التي أجمعتها في كتابنا عن الديقراطية في الإسلام، وقلنا متقين عليها إنها روايات لم تخل من إضافات القصة والخيال كيجمع روايات التاريخ القديم المقول بالثقلين والإنسان ولكننا ثبتناها ونعمل عليها لأن الفكرة هنا أبلى من الحجر أصدق من وثائق الأوراق، فلو لم تكن فكرتهم الغالية عن الحكم أنه عزه وخياله لا تكملان لصاحبهما بغير إذلال الأعراف، وتحمل الدواعي للعتو والإيذاء، لما تواترت أنباء الملوك على هذه الوتيرة... ٥.

ومن هذه الفكرة المتواترة عن سلطان الحكم إلى محاسبة الخليفة على كل صغيرة وكبيرة في شؤون الدولة بون بعيد، وشيوعها بين الخاصة والعامة حتى يتصلى للحساب صغير القوم وكبيرهم على السواء هو الفتح الذي جاءت به العقيدة الإسلامية على أعقاب الجاهلية وعلى مسمع من طغيان الأكاسرة والقيصرية والتبابعة، في الشرق والغرب والشمال والجنوب...

وسرى أنهم كانوا يحاسبون الخليفة على الزيادة في حمى المرحى النبوك، لا بل

الصدقة بعد تكاثرها ومضاعفة عددها، وسرى أنهم كانوا يحاسبون واليا من أكبر ولايته - وهو والي الشام معاوية بن أبي سفيان - لأنه سمى مال الدولة مال الله بعد أن كان يسمى بيت مال المسلمين، وأشفقوا أن يكون تغيير الاسم تمهيدا لاستئثار الحاكم بالتصرف فيه، وكف المسلمين أصحاب المال عن المحاسبة عليه.

هذه المحاسبة بين الحاكم والمحكوم قيمة كبيرة نشأت مع العقيدة المحمدية، وهي قيمة كبيرة على جميع حالاتها من الصدق فيها أو التلويح بها إلى غرض قد يخفيه أصحاب الدوائر والتعللات، فإن القانون يصونه أناس مخلصون وبدعي غيرهم صباه كاذبين مدلسين، ولكن القانون على الخاليين كسب عزيز لا يستهين به عاقل ولا يقول أحد بالاستغناء عنه من أجل الكلب به أو الكلب عليه، وكذلك كل قيمة غالية من قيم الحياة الإنسانية كالفضيلة والخير والحرية والصدق وما شابهها من فتوح الضمير في أماد التاريخ ما يحرص عليه الناس أو يعطون الحرص عليه، فإنما تكسبها الإنسانية بالتعارف عليها وقبولها أو قبول مقاييسها، ولن تكون القيم جميعاً إلا من هذا القبيل وعلى هذا المثال.

ولقد كان من النافذين لمحاسبة عثمان رضي الله عنه مغرضون يقولون مالا يفعلون ويفعلون غير ما يقولون. كان منهم من أقام عليه الحد، ومن حبس أباه في جربة، ومن فرق بينه وبين حليته تزوجها على غير الشريعة، ومن أسى عليه الولاية، ومن لم يصنع به الخليفة أسراً من هذه الأمور ولكنه كان منطوي النية على الفساد والإفساد. وكل هذه المآرب قد شبيت بها حركة المحاسبة على أعمال الخليفة، فكانت عيباً للحركة ولكنها لم تكن عيباً لخلق المحاسبة ولا إزراء بشأته ولا بالشأن الذي أكتسبه الأمة من تقريره والتعارف عليه، ولولا أنه حق لما عمل به المبطلون...

وأنت البحث في تطور الأخلاق والقيم الإنسانية أن يتولاها من لا يفقهون قيمة النهى عن شيء بعد أن كان مباحاً غير منهي عنه ولا يخطر النهى عنه على بال أحد، فإقامة الحدود التي يؤخذ الناس بالتزامها وينهون عن تجاوزها، هي عنوان الدواعي الباطنية التي غيرت حياتهم، وغيرت نظراتهم إلى الأعمال والأخلاق فأعلنوها في تلك الحدود.

وأصل من هؤلاء من يبحثون في تطور الأخلاق بالمناوين ويطبقون العنوان الواحد على صفتين مختلفتين أو متناقضتين، ويكاد القس Rashid al أن

ومحاسبة الحكام كانت قيمة جديدة بين العرب ومناو المسلمين في الصدر الأول من الإسلام ، فنادى بها الخاصة والعامة وأدعاهم الصناديق والكاتب ، وظلت عاملا مهما في السياسة أيام الخلافة وبعد أن صار الحكم ملكا يتوارثه الأبناء عن الآباء ..

لما الخليفة عثمان رضي الله عنه فائق العقيدة فيه وهو فرد أوضح من أثرها فحين قدموا إليه من الأماص ليأمنوه ويحاسبوه ، وهو واحد من أجاد معدودين لم يكن في وسع العقل أن يتخيلهم في جاهليتهم على حالهم التي ارتفعوا إليها بعد الإسلام ..

إنه كان من سلاطة الأمويين ، وهي سلاطة اشتهرت في الجاهلية بالحرص على المال لا تبتله في غير مآرب أو متعة ، ولم ينهض أحد منهم بتكاليف الوروة والسخاء إلا منافرة لن ينالهم بين الملأ ، وغيرتهم إلى الجدل والثناء ، فلما أسلم عثمان رضي الله عنه كانت شهرته الكبرى بالسخاء والأريحية ، فنزل عن ماله لتسجيم جيش في سنة المعصرة ، ونزل عن ماله لشراء بئر يستقى منها المسلمون بغير ثمن ، ونزل عن ماله لتوسعة المسجد ، ونزل عن ماله لحمل المعام وعانة الملهوف وغير بالأقربين والأبعدين ..

ومذهبه في محاسبة نفسه قد تتعارض فيه الأقوال والتأويلات ، ولكنه في الأمر الثابت الذي لا جدال فيه قد بلغ الذروة من محاسبة النفس والتخرج من المساس بالحياة البشرية ولو في سبيل اللدود عن حياته وحياة أقرب الناس إليه . فلما أيقن من القتل أي أن يبقى في داره من يقتل أحداً ممن يحيطون بها ويحاربون اقتحامها لا ضغينة ، ولا سمل أن يتنحى عن الخلافة أي أن يتنحى عنها ، ولم يكن إلاؤه ضئلا بشيء يحتويه ، فلا شيء أغلى من الحياة وقد هانت عليه ، ولا يزعم أحد أنه غنم من الخلافة مالا ، ولكنه أي أن يخلع نفسه حذرا من أن يحمل جريرة الخلع وما يعقبه من النزاع والقتال ، وقد صرح بذلك غيره مرة فقال أنه يخشى على الدين يستعملون أيامه أن يستنبروا بعده لو كان يومه مائة سنة ، فلا يبرون بالمعاقبة المخلوعة وهو مختار ..

فإذا تركنا الحوادث جانباً ونظرنا إلى التاريخ في صدر الإسلام على أنه تاريخ قيم ومبادئ ، فلنا أن نقول إننا أمام فواجع مبللة يود الناس لها لو يزوي بصورها ، وليس لنا أن نقول إننا أمام صدمة يعظم بها من يسأل عن أثر العقيدة وأطوارها ، فلا صدمة هناك إذا نحن وزنا الحوادث بغير أن القيم ، وعلينا أن التاريخ لن يخلو من الحوادث ، وأن حوادث الخلاف ليست بأكبر للشرور تنبئ بها فمناو بني الإنسان ..

يزن الأطوار الأخلاقية بهذا الميزان حيث يقول : «إنه نذر من رذيلة أو جريرة إلا كانت في زمن من الأزمنة منظورا إليها كأنها واجب من واجبات المداينة أو العرف ، كالسرق التي كانت تحسب فضيلة من الناشئة الإسيرطية ومن الطائفة الهندية التي تسمى بطائفة الخناتين ، وقد كانت القرصنة - وهي سطو وقتل - صناعة محترمة في العالم القديم ، وكان الاضطهاد الديني في القرون الوسطى أشرف الواجبات » .

وليس من اليسور في هذا المقام أن تفصل وجوه الخلاف بين الإباحة القديمة والتحرر الحديث في جميع هذه الفعال والحلال ، ولكننا نكتفي بما يستطيع بياناه بغير حاجة إلى الإضافة والإسهال كالقرصنة ما بين المعمرين القدم والحديث . فهل للقرصنة التي نعرها اليوم هي القرصنة التي كانت مباحة بالأمس أو هما نقيضان باسم واحد مشترك بينهما يوم المصطلح ؟

الواقع أن قرصنة الأمس كانت حقا كحق صاحب الملك الذي تسطو عليه ، إذا كان صاحب الملك يجمع بضاعته بسطو على قبيلة أو عشيرة أضعف منه وأعجز عن الهجوم والدفاع ، فإن كان فيما يملك شيء ممتنع فهو من صنع العبيد المستخرين في أرضه أو عمله وكلم من أسرى الحرب المنتصين من أبناء القبيلة التي قهرت لأنها عاجزة عن مقاومتها ودفعه . فحقه في بضاعة السفينة كحق القرصان عليها ، وليس هذا الحق الذي يسطو القرصان في العهد الحديث أن يدعيه ويقتل التعارف عليه ..

ويصدق على سرقة الناشئة الإسيرطين ما يصدق على القرصنة في المعصور القديمة ، ويمكن أن يقال كذلك أن الاضطهاد الديني في المعصور الوسطى غير الاضطهاد الديني في العصر الحديث . لأن العمل لا يعتبر رذيلة أو جريرة إلا إذا كان فيه تنقض لقيمة أخلاقية مصطلح عليها ، ولم يكن التسامح ولا الحرية الفكرية قيمة مصطلحا عليها في المعصور الظلمة بين الأوربيين سواء منهم المظهدون ومن يقع عليهم الاضطهاد ، فلو أن أحدا من الذين وقع عليهم الاضطهاد ظفر بخالفه في العقيدة لاضطهدهم كما اضطهدوه وفسدهم على التصديق بعقيدته كما قسروه ، وكلا الفريقين يستفيد من حرية الفكر على اعتبارها تقريبا في الفترة على الدين ..

فالقيم الأخلاقية والوجدانية هي الجوهر المهم في تطور الأخلاق ، وليست هي الاسماء والعواوين ، ومضى ظهرت «القيمة» في أمة فهي مكسب حق لاشك في نفعة أي كانت نية المنادي به على المصدق أو على المخداع ، ولو لم يكن الذهب قيمة لما استحق أن يزيقه المزيفون ..

إن الثورة التي أطاحت بشارل الأول قد اجتمعت فيها قوة الأمة بأسرها على وجه التغريب أمام قوة العرش وأنصاره من النبلاء ، وقد كانت هناك حرب وهزينة غلبت فيها إحدى العزتين ، وانتهزت فيها القوة الأخرى .

وهكذا حدثت في الثورة الفرنسية التي طاحت بوليس السادس عشر ، وهكذا حدثت في ثورات كهذه بالفتارة الأمريكية والعالم القديم .

أما مقتل عثمان عليه الرضوان فلم تكن فيه حرب بين قوة الدولة وقوة الأمة ، ولم تقابل فيه قوى الحكومات الإسلامية وقوى الأمم في البلاد العربية وغير العربية ، وغاية ما يوصف به أنه وحادة محلية ، قد تتم على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء ، وقد يستطيعها ابن السوء ومن هو أقل من ابن السوءاء . إن وعلى سجل الإيجاز الذي يقتضيه عن الإسهاب في المقارنة والمناقشة نقول : إن عثمان رحمته الله ما كان ليقتل لو كانت داره محروسة حراسة الدور التي يقيم فيها ولاية الأمور ، وإن هذه الجمهورية التي اقتضت داره واجترأت عليه بالسلاح ما كانت لتقتل ولياً من ولاته . كعماوية ابن أبي سفيان في الشام مثلاً . لو أنها هجمت على داره بين حرسه وأجناد ، فلا محل هنا للموازنة بين قوى الدولة وقوى المشاغبة أو الفتنة ، ولا محل كذلك للموازنة بين عوامل الانقلاب السياسي وعوامل الدطاع عن شخص الخليفة في داره ، فكل عوامل الانقلاب لم يكن من الحتم أن تؤدي إلى مقتل الخليفة ولو بلغت أضماص ما كانت عليه ، وقد كانت المشاغبة التي جنت جنايتها على حياة الخليفة كافية لا اجتراح هذه الفعلة ولو لم يكن وراءها كل عوامل التطور وإزادات بعد تجمع هنا وهناك في تلك الفترة المناجحة ، وقد بقيت عوامل التطور وإزادات بعد انتهاء عهود الخلفاء الراشدين وقيام تلك المروث ، فلم ينجح عنها مقتل ملك أو وال من كبار الولاة في بقاء الدولة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها .

فمن الواجب إذن عند إحصاء الأسباب والتبعات ، والكلام عما يستطاع وعمن يستطيع أن تفرق بين الحاديين وأن ترجع بالتطور السياسي إلى أسبابه وعوامله التي تبلغ ما تبلغ ولا يلزم منها أن تؤدي إلى مقتل ولي الأمر في عاصمته ، وأن ترجع بقتل ولي الأمر إلى أسبابه وعوامله التي قد تحدث مع ذلك التطور وقد تحدث منفصلة عنه في كل طور من أطوار التلقين والتدمير ، بما يدمر أو ينقص بانقضاض أزمته ثم لا يعود في عصره . .

ويعاد الصدمة

ولست الصدمة العنيفة بالمائل الوحيد دون توضيح هذه الفترة وتخص أسبابها وعواملها وتبعات المسئولين عنها . فالصعوبة الكبرى أننا في هذه الفترة أمام حاديين يرجع كل منهما إلى أسبابه وعوامله ، ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الأسباب والعوامل . .

هذان الحاديان هما التطور السياسي ومقتل عثمان رحمته الله ، وأسباب هذا لا تكفي لتعميل ذلك وليس من الحتم أن تؤدي إليه . وقد طالع الجدل حول عمل عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوءاء وأثره في هذه الفترة ، فزأى بعض المؤرخين أنه أهون من ذلك لأنهم اعتقدوا أن الانقلاب السياسي ومقتل عثمان حادث واحد له أسباب واحدة ، وليس هو كذلك . ولو أنهم فصلوا بين الأسباب في كليهما لا يمكن تقدير التبعة والاستطاعة في عمل كل عامل ودسيعة كل مشترك في المؤامرة .

فابن السوءاء ولا شك أهون من أن يحدث التطور السياسي ، وغيره من هم أعظم منه شأنًا وأشد منه خطراً أهون من إحداث ذلك التطور كله سواء تعددوا أو عملوا له غير عامدين ، لأنه يرجع إلى أسباب متفرقة عميقة القراء ، كثيرة الشعب ، لا تستطاع بها قدرة رجل واحد ولا عدة رجال متآلفين متواطئين . .

ولكن مقتل عثمان شيء آخر غير التطور السياسي ، وفي وسع ابن السوءاء ومن هو أقل منه أن يقتلوه بيده وأيدي من يستمعون لتحريفه ودسيسته ، لأنه في حقيقة «مشاغبة» من مشاغبات الدهماء التي لا تعجز عن أمثال هذه الأفاعيل .

والذين يقرؤون فاجعة عثمان وعلوون بالتاريخ يسبق إلى خيالهم ما قرأوه عن مصارع رؤساء الدول في إبان الثورات والعنف القومية كالثورة الإنجليزية مع شارل الأول والثورة الفرنسية مع لويس السادس عشر ، وغيرهما من الثورات في لعالم القديم والعالم الجديد .

ورسيت إلى خيالهم هذه الصورة ، حسبوا أن الثورة التي أفضت إلى مقتل رئيس الدولة في الأمتين كالثورة التي أفضت إلى مقتل رئيس الدولة الإسلامية في صدر الإسلام ، وبنيتهما في الواقع لائق بعيد أبعد من فارق الزمان والمكان .

وكان الناس من المجتهدين يتابعون محمد بن سليمان المتطالع على هذا الرأي ، أو يتابعون معاوية بن أبي سفيان أول من قال به وذهب إلى تخطئة عمر في تدبئه لأهل الشورى ، ولم تزل منهم بقية في عصرنا هذا ترى الخصافة والحكمة فيما قاله معاوية ، منهم الأستاذ محمد أحمد جاد الهلي الذي كان كبيراً للمفتشين بوزارة المعارف ، فهو يتقل كلام معاوية في كتابه «إصناف عثمان» ثم يتبعه قائلاً إنه رأى «المصنف الجرب الذي حلب الدم أسنطوره وغلب برأيه ودهائه صاحب الحق على حق» ، وأقام دولة الإسلام على تخوم دولة الروم موطنة الاكتاف قوية الدعام ، وحاش لعمر أن يتهمه أحد فيما فعل ، فإنه لم يرد إلا بخلاف وانتراف بين المسلمين ، وأكبر الظن وكان أعظم ما يجرؤ من ذلك ألا يكون خلاف وانتراف أن يبرج المسلمين من المناه عدنا أن عمر لو كان في حال غير هذه قريباً ففضل أن يبرج الناس لهذا التعيين والمنازعات الحزبية ويعهد إلى من هو أهل الخلافة ، فقد يحد الناس لهذا التعيين حرية تسكت الالسة والدولة لا تزال فية ، أمدى أمدائها الشقاق والانقسام . ه .

هذا سبب من اسهر الاسباب المذكورة ، بتواتر القول به من أيام الفتنة إلى

العصر الحاضر ، ولو كانت الاسباب التاريخية تعمل على قدر ومنها وتأثير الغرض فيها لا ورد لهذا السبب ذكر على لسان بعد إفضاء معاوية به إلى أبي الحصين ، إلا أن يكون ذكره لتوجيهه والكشف عن غرضه ، وهو مكشوف لا يجهل من يريد أن يلتفت إليه .

فمعاوية لم يتكر الشورى في اختيار الخليفة إلا لأنه أجمع العزم على خطئة ولاية العهد ورشح لها ابنه يزيد من بعده ، وما كان في هذه الخطئة حصانة ولا تحرية لأنها لم تلبث أن أوقعت الخلاف في أقرب الأقربين إلى معاوية وسائقهم إلى تولية العهد اثنين بدلا من ولي عهد واحد ، ولم تحسم الخلاف بين بني أمية فضلا عن حسم الخلاف بين قريش وبين سائر المسلمين . . .

وقد قال الشعبي إن عمر لم يمت حتى كانت قريش قد ملته لقمعه رؤساهم وحجسه إياهم بالحجاز خوفاً من فتنتهم بالدنيا وقتنة الدنيا بهم ، فلو أن كانت هيئته في حياته قد سكنت بهم عن الخلاف فهم مختلفون بعد موت لا محالة ، ولو أنه اختار للخلافة أحداً سماه لا اختار طلحة ولا الزبير لأنه لم يذكرهما فيمن قناه للخلافة من الورى ولا من الأحياء . فقال إنه كان يختار أبا عبيدة لو عاش لأنه

اسباب ولا اسباب

على أن الاسباب التي ذكرت للمعادنين جميعاً لا تزال في حاجة إلى إعادة نظر . . . لأنها إما اسباب مزمومة يراد بها غير ظاهرها أو يجهل بها المجتهدون بغير روية في مواردها ومصادرها ، وإما اسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها إلا لاعتراضها بأحوال تلك الفترة ، ولو جاءت في فترة أخرى لا كان لها ذلك الأثر . . .

خذ للملك مثلاً اسباب الفتنة كما ذكرها معاوية لابن الحصين . . . سألته حين وفد عليه : «ما الذي شئت أمر المسلمين وخالف بينهم ؟» قال ابن الحصين وكأنه أراد أن يرائي هواء : «قتل الناس عثمان ؟» قال معاوية : «ما صنعت شيئا» فقال ابن الحصين يقول : «فسخر طلحة والزبير وعائشة وقال علي إياهم» . قال معاوية مرة أخرى : «ما صنعت شيئا» . فقال الرجل : «ما عدى غير هذا يا أمير المؤمنين» . قال معاوية : «فأنا أخبرك إنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق أمواهم إلا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر ، وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فعمل يا أمرة الله به ثم قبضه الله إليه وقدم أبا بكر للصلاة فرفضوه لأمر دنياهم إذ رضى رسول الله ﷺ لأمر دينهم ، فعمل بسنة الرسول وسار بسنونه حتى قبضه الله ، واستخلف عمر فعمل بمثل سنيته . ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن منهم رجل إلا رجحها لنفسه ورجحها له قومه . ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف» .

كذلك روى ابن الحصين عن معاوية ، وجاء الناس من نوى المنظر في الحكمة والتاريخ فقالوا يا قال به مزمومة ومنهم محمد بن سليمان المتطالع فيما رواه عنه ابن مكى الحارث . قال ما فواء إن اختيار الستة من أهل الشورى ليكون الخليفة واحداً منهم بعد مقتل الفاروق قد جعل كلا منهم يشرب إليها ويعلم أنه أهل لها ، وكان اتقدم عملا لها وكذا لعثمان طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي للثقوب بطلحة الجرد ، فهو من أبناء عمومة أبي بكر ، محبوب لسخطه وشجاعته وسبقه إلى الإسلام ، وكان يناقش عليها الفاروق فضلاً عن جاء بعده ، ويرى أن أبا بكر كان خليفاً أن يكلمها إليه ، وأنه إذا فضل عليه عمر فليس بعد عمر من يفضل ، وأما الزبير لأن منافسة على وعثمان إذا وليا الخلافة اتفق عليه من منافسة طلحة إذا هي آلت إليه .

منها فحمد المسلمون صنيعهما وأكروه من أكروه منهم أولا ثم عادوا إلى قبره بل ألفوه وأثروا عليه .

قال عمر : إن القتل قد استحق بأهل الجامة ، وأخفى أن يستحق بقرأه الكتاب في غيرها فيلعب ما حفظوه بديارهم ، إلا أن يجمعوه ، وأشار على الخليفة الأول يجمعه ، فكانت مفاجأة نثر منها أبو بكر وجعل يقول : وكيف أنزل شيئا لم يملئه رسول الله ؟ ، فقال عمر : أهو والله خير . قال أبو بكر : نعم خير . ولم يزل عمر يراجعهم حتى شرح الله للملك صدره . ثم أخذوا ينتخبون أي القرآن ويجمعونها من الرقاق والمسب والأكتاف وصلدوا الرجال ، حتى وجدوا من سورة التوبة آيتين عند خزينة بن ثابت لم يجلدهما عند غيره ، وتم جمع الكتاب في مصحف عند طائفة من جلة الصحابة كالإمام علي ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وجاء عثمان فسد فرائع الخلاف ولم يأت بشيء من عنده غير تعميم المصحف في جميع البلدان ليعرفه المسلمون على نسخة واحدة .

ولكن كان في بعض هذه الأمور التي تتعلق بالدين مخالفة للمألوف لقد خالف عمر المألوف فن منع زواج النعمة وفي نفس الألفية للمؤلفة فلربهم وفي الإغناء من حد السرقة في عام الجماعة ، وفي تسمية الصفوف بالسجدة عند الصلاة ، وفي مسائل أكبر ما أحصوه على عثمان فلم يتحدث بها متحدث على سخط وتذمر فقبلا عن الثورة وحمل السلاح .

ولا تغفل في سرد الأمور «الدينية» التي قبل إنها حاجت الفتنة على عهد عثمان ، ومنها عليه قرش على الأمصار وسيادة العرب على الأمم الأخرى ، وإقامة بعض الولاة المدين اتهما في تقواهم ، وبذل الأموال للورى القرابة والعصراء .

فقد ثار الثوار ، فجاء الكوفيون بطلون الزبير ، وجاء البصريون بطلون طلحة وجاء المصريون بطلون عليا وكلهم من صميم قرش ، وقد أقام معارضة ملكه بقرش والعرب ، وكان بذل الأموال للورى القرابة والعصراء عماد دولته ووسيلته إلى تأسيس بيته وبسط سلطانه .

ومن الولاة المدين ائكر الشاذلون ولا يتهم لاتهمهم يشرب الخمر الوليد بن عتبة ،

سمع رسول الله يدعو أمين الأمة ، أو كان يختار سالما مولى أبي حذيفة لو عاش لانه رأى رسول الله يقدمه للصلاة بالمهاجرين . فلما سمى من يحسبهم مرشحين للخلافة من الأحياء عليا وعثمان ولم يجاوزهما إلى غيرهما من السعة أصحاب الشورى . فقال لعلي : «اتق الله يا علي إن صارت إليك ، ولا تحمل بني هاشم على رؤوس الناس» وقال لعثمان : «اتق الله يا عثمان إن صارت إليك ، ولا تحمل بني مغيبط على رؤوس الناس» وما نصبيه سكت عن طلحة إلا عامدا وعلى علم بأن اتفاق السعة لا يجمعون عليه ، وثقبة أن يظن ظان أنها وقفت على بني تميم ، ولقينا منه أن اتفاق السعة على واحد أخرى أن يلزمهم الطاعة لن يتفقون عليه .

وإذا كان في كلام معارضة لأبي الحسين حصافة ألمية فذلك هو إشارته المقصودة إلى الشغرفة بين أمور الدين وأمور الدنيا ، واعتباره أن تقدم النبي ﷺ أيا بكر للصلاة بالناس بمثابة الرضى عنه لأمر دينهم فأضاف الناس إليه الرضى عنه لأمر دنياهم ، ويصح من ثم أن يكون الرضى عنه لهذه غير الرضى عنه لتلك ، وهذا هو المدخل إلى ولاية الملك لا مثقال يزيد وعقبه مع وجود من هم أفضل منه دنيا من جلة الصحابة والتابعين .

ونعفل عن الأسباب المزعومة أو الأسباب التي اجتهد بها المجتهدون إلى الأسباب الواقعة التي حدثت وكان لها أثر في إجابة الجواهر وتسوية الانقلاب ، ومنها ما يتعلق بأمر الدين ومنها ما يتعلق بأمر الدنيا أو أمور الحكم والسياسة .

فمن الأمور التي تتعلق بالدين أن الخليفة الثالث زاد النداء في الأذان للصلاة الجمعة ، وأنه أم الصلاة في منى وعرفة ، وكان النبي والخليفةان الأولان يقتضيهما على القصر ، وقد صلاهما عثمان نفسه في أول خلافته وكنتين ، ومنها أنه جمع القرآن في نسخة وأمر بإحراق ما عداها في المدينة والأعصار .

ولم يكن عثمان يترك في واحدة من هذه مستحب حرام بل كان متحرجا غاية التحرج لدينه ، فقد زاد في الأذان لكثرة عدد الناس واتساع المدينة ، وصلى صلاة القيم لانه ابتعد بكثرة أهلا فتخرج أن يصلى صلاة المسافرين وهو صاحب أهل فيها ، وقد كان جمعه القرآن الكريم حسنة من أجل الحسنات سبقه أبو بكر وعمر إلى

وقلنا قبل ذلك : «انه لا بد من ملك أو خلافة ، ولئن يكون ملك بأدوات خليفته ولا خليفة بأدوات ملك .. ولم يكن معاوية زاهداً في الخلاف على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان ولكن اخلافة كانت زاهدة فيه ، فلما جاء عصر الملك طلب الملك

والملك يعطيه . ٢٠ .

ثم قلنا : وكيف يكون الخرج بين سياسة الملك كما يعطيها المعصر وسياسة الاخلافة كما يعطيها البقية الباقية من أدب الفترة النبوية ١ . . أخرج الأموال على رؤس القوم وقادة الجند وطلاب الترف ، أم يلزمها عيشة النمك والشفق والجهاد ؟ وإذا حرمهم وتكبروا عليه مع خصمه أفهو الغالب إذن بطلب المعصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟ وإذا أعطاهم لبيتهوا بلخ الملك البدوي وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنة النبوة . أفستقيم له هذا الدوراء المجيب وهو في جوفه متناقض لا يستقيم ٢١ .

ذلك هي العقدة التي استحكمت في عهد عثمان ووجب أن تنقطع في عهد على ومعاوية . .

واعادة النظر في جميع الأسباب والنجعات تعود بنا إلى نظرة فاصلة في هذه المشكلة التي زادها نفر من المؤرخين إشكالا بما أضافوه إليها من الأسباب المختلفة والأسباب الصحيحة التي خرجوا بها على غير مخرجها .

فنحن في الحاديين جميعاً بعد هذا أمام أسباب لا تعمل فعلها لو جاءت في فترة أخرى ، ولعلها تعمل تقضى فعلها لتزيد ولي الأمر ولا تتخلله كما تأيدت دولة بني أمية بالمطايا والمناظر وكان فيها خلالان عثمان وشيرة مبرزان . .

وما لم تنقطع غاشية هذا اللبس وهذا الإبهام من تاريخ هذه الفترة فنحن نسلوها في ضباب لا يندبر فيه الأشباح والصور على حقيقتها ، ومن ثم خرجوا أن نبدأ السيرة وقد تبدد ما حولها من غرائش تلك الضباب الكثيف ، وستبدؤها من حيث تبدأ في طريق لا يهيمه اختلاط الأسباب ولا التعويل عليها مبتورة منفصلة الرؤوس والأذنان . .

وقد حله عثمان بعد استماعه للشهادة عليه ، ولم تكن ولايته على عهد عثمان بل ولاه عمر على الجزيرة واختاره عثمان لولاية الكوفة .

وسنرى ، بعد أنه ما من عمل نسب إلى الخليفة الثالث إلا حدث مثله من قبله فلم تشب من أجله فتنة ، أو حدث مثله من بعده فلم تشب من أجله فتنة ، بل لعله كان من دعائم الدولة وأساس السلاطان .

ولهذا قلنا إنها أسباب ولا أسباب ، وإنما بين أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها ، أو أسباب صحيحة ولكنها لم تعمل فعلها إلا لاقتراانها بأحوال تلك الفترة ، ولو جاءت في فترة أخرى لما كان لها ذلك الآخر ، لم ؟ ؟

نعم ، لم والأسباب واحدة تختلف عواقبها بين هذه الفترة وغيرها ؟

ذلك أنها فترة جاءت بين الخلافة والمملكة ، فلا تستقيم فيها وسائل الخلافة ولا تستقيم فيها وسائل المملكة . . ومن هنا اضطراب الوزن ، واضطراب السخط والرؤى ، وقياس الأمور في وقت واحد بقياسين مختلفين أو متعارضين . . ولعمر الحق ما من شيء يدل على أن الأحداث السياسية تبع للحالة النفسية ومقاييس الفكر والاختلاق كما يدل عليه تاريخ هذه الفترة في صدر الإسلام بين خلافة الراشدين ودولة بني أمية .

لقد كان الناس رعية «مملكة» يتصرفون في معانيهم ومطالبهم كما يتصرف رعايا الممالك ويسومون ولي أمرهم أن يوسعهم سياسة الخلافة ويتصرفون من الخليفة الثالث ألا يعجز في أمر من الأمور على نهج يحرف قيد شعرة عن نهج الخلفيتين الأول والثاني ، وهم أنفسهم قد انحرفوا عن نهج رعايا الخلفيتين أبعد انحراف .

وما لا جدال فيه إن عثمان لم يكن بقوة أبي بكر وعمر ، ولكن عمر نفسه على قوته ومهاريته قد أحس في آخريات أيامه وطأة الاختلاف بين اليهود فكان يقول في دعائه : «اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعتي ، فابقضني غير مضيع ولا مغرط . ٢٠ .

فكليف عثمان أن يستيقظ الزمن حيث لا يبقى ضرب من تكليف الأيام ضد طابعها كما قال الشاعر الحكيم ، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك قلنا في عتيقية الإمام أن عثمان «أحس بها فما تارك الدنيا حتى ترك الخلافة وللك عسكريين متاجزين لا يرجع أحدهما إلا بالعلية على نده وضده» .

تفسير الحديث أن الأمة التي ولدت أباه كانت ليهودي من أهل صفورية ، ويقال غير ذلك ما يسر الفصل فيه .

ولكنه من المرجح الذي ينتهي به التاريخ إلى دور التحقيق أن الثبني وقد صم المعصية به معهودان في هذه الأسرة على نحو لم يذكر له مثيل في الأسر الجاهلية الكبيرة ، وما رواه الأصفهاني وابن أبي الحديد أن معاوية قال لدخيل النسابة : « رأيت أمية »^(١) .

قال : نعم ، قال : وكيف رأيته ؟ قال : رأيته رجلاً قصيراً ضروباً يقوده عبده ذكوانه ، قال معاوية : ذلك ابنه أبو عمرو . قال دخيل : ذلك شيء تقبلونه أنتم ، أما قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده .

وفي التاريخ للثابت بعد الإسلام أن أبا سفيان استلحق زيادا الذي كان يسمى بزياد بن أبيه أو بزياد بن سمينة ، وكان معاوية يفضي على من ينكر هذا الاستلحاق ، فقال يزيد بن مفرج يخاطبه :

أنفسي إن يقسمك أبوك عفا وترضى أن يقسمك أبوك زانا
فأقسم إن رحمتك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان
وروى البلاذري من أخبار هذا الاستلحاق أن عثمان بن محمد بن أبي سفيان وفي المدينة بعد عمرو بن سعيد ، فعرض في خطبته بسلقه وكان هذا حاضراً في المسجد فنهض مفضياً وقال فيما قال لعثمان حفيد أبي سفيان :

« انسى لا يستنكر شعبى ولا ادعى لغير أبى » .

وزيد المقرئ على ما تقدم من خبره أن أمية وصنع في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب : تزوج ابنه أبا عمرو امرأته في حياته .

قال المقرئ : « والقتيلون »^(٢) في الإسلام هم الذين أولدوا نساء ، أبائهم واستنكحوه من بعد موتهم . وأما أن يتزوجها في حياته وينس عليها وهو برأه فإن هذا لم يكن قط . وأمياً قد جاوز هذا المعنى ولم يرض بهذا المقادح حتى نزل عنها له وزوجها منه » .

(١) قلت : كذا في أيام الجاهلية وهو : تزوج الرجل من امرأته أمية .

الفصل الثاني

بين الجاهلية والإسلام

نشا عثمان بن عفان في أسرة أموية تنتهي إلى أمية جد أبيه ، وعند أمية أكثر الخلاف على مسألة نسب بين أسرته والنسابة ، فلا تنفق الأقوال المتعارفة على قول حاسم .

يقول المقرئ في رسالة النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم : « وقد كانت المناورة لا تزال بين بني عبد شمس بحيث إنه يقال إن هاشماً وعبد شمس ولدا توأمين فخرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم وقد لعمقت أصبح أحدهما بحبيبه الآخر ، فلما تزعت دمي المكان فقبل سيكون بينهما أو بين ولديهما دم ، فكان كذلك .

ويقال أن عبد شمس وهاشم كانا يوم ولدا في بطن واحد ، كانت جباههما ملامسة بمضغها ببعض ففترق بين جباههما بالسيف ، فقال بعض العرب : ألا فرق ذلك بالدرهم ؟ فإنه لا يزال السيف بينهم وبين أولادهم إلى الأبد » .

وأمية هو في تاريخ الأسرة ابن عبد شمس أحد التوأمين أو الأخوين ، ولكن بعض النسابة يقول إنه ربيب عبد شمس ، لأنه ابن جارية وربية وصلت إلى الحجاز مع ركب سقينة جنت إلى الشاطئ ، ويصورون بذلك أحياناً منسوبة إلى أبي طالب يقول فيها :

قديماً أبوهم كان صبيداً لجدنا بني أمية شهلاء جاش بها البحر

ويصورون به أيضاً قول الإمام علي لمعاوية في بعض كتبه ليس المهاجر كالهليلج ولا المعرب كالمصيق ، ، وجاء في ابن هشام أن عقية ابن ذكوان بن أمية صاح حين أمر النسي بقتله : « أأقتل من بين قريش ؟ » فقال عمر بن الخطاب : « وح » فذبح^(١) ليس منها ، وهو مثل يقرب للفتح للمخيل في اليسر ، وروى ابن هشام أيضاً أن النبي ﷺ قال حينئذ : « إنا أنت يهودي من أهل صفورية » ويقال في

(١) فتح نسيم

ويشتهر نسبه إلى فهر بن مالك ، وكانما أراد الكاهن يذكره بما في النسب الأول والآخر من صوره به خير . .

قال الرواة : فأخذ هاشم الإبل فنحروها وأطعم لحمها من حضرة وخرج أمية إلى الشام فقام بها عشر سنين .

ويكاد التناقض بين العشيرتين أن يشمل كل مطلب من مطالب الحياة فشمس الغروسة ووسامة الذرية كما شمل الرئاسة ومناخر السيادة . .

تناقض أمية وعبد المطلب على سباق للخييل ، فزاعنا على أن نُغزّ ناصية المسبوق منه ونغرم عددا اختلقوا فيه من العبيد والإماء والإبل ، فسبق فرس عبد المطلب فرس أمية ، ودان أمية بسيادته عليه سنة ، وينقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة كلمة لمبدل الله بن جعلفر في محضر معاوية جبه^(١) بها يزيد وهو يفاخره فقال : دانتاخرني بحرب الذي أجربناه أم بأمية الذي ملكناه أم بعبد شمس الذي كفناه^(٢) .

ويقول الكلبي في أبناء عبد المطلب : «كانوا إذا طافوا بالبيت يأخذون البصر» ، ورأهم عامر بن مالك فقال : «بهؤلاء تمنع مكة» . وغير هذه الصفة فقال في أبناء حرب فلا يتصدى لنقضها أحد من الأمويين المتعلمين . .

ونحسب أن الناقصة بين العشيرتين كانت ضربة لازب ، لأن الاختلاف بينهما أعمق غورا من الاختلاف على الرئاسة ومناصب الشرف فيما اصطلاح عليه عرف الجاهلية : كان اختلافاً في الخلق والطبيعة ، وكان بنو هاشم على ما ثبت من الروايات المتقدمة أقرب إلى الأخلاق المثالية الدينية ، وبنو أمية أقرب إلى الأخلاق العملية الدنيوية . وقد يتوعد المؤرخ في قبول بعض الروايات المتقدمة على علاقتها ولكنه لا يحتاج إلى الشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلافتي العشيرتين فيما أثر عنهما قبل الإسلام وبعد الإسلام ، ففي حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم ، وتخلّى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه . . وحلف الفضول هذا هو الذي قال عنه النبي ﷺ : «لقد شهدتم في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول . . أما لو دعيت به اليوم لأجبت ، وما أحب أن لي به حشر النعم وأني تنفسته» .

(١) جبه : أي رده وضرب جهته

ثم قال القرطبي : «أبو معيط بن أبي عمرو بن أمية قد زاد في المقت درجتين» . . ودع ما جاء في أنساب الأشراف وفي شرح نهج لبلاغة من سائر هذه الأخبار عن استحقاق الأبناء ، فإن الحصر على تدعيم لعصبية ظاهري في هذه الأسرة عايت من أخبارها فلا حاجة إلى الإسهال فيه .

وكانت المناقرة شديدة بين أمية وهاشم إلى أيام الدعوة الحمدية ، يحفظ لنا الرواة أخباراً كثيرة منها قديمة وحديثة ، فمن أحداثها قبل الدعوة الإسلامية أن حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم تنافرا إلى حكم من بنى عدى القريش هو ثعلبة جد الفاروق ، فقال ثعلبة لحرب : «أنتافر رجلاً هو أطول منك قامه ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل منك صفدا ، وأطول منك مذوداً^(١)» .

أبو بكر مُصمّم وأبو عوف وذاد الفيل عن بلد حرام يشير إلى تمرض أمية للنساء ، ومنهن امرأة من بنى زهرة راودها فتصدى له بعض قومها وأوشكت أن تكون من جراء هذا الخلاف فتنة بين قبائل قريش . .

وأقدم من هذه المناقرة مناقرة أخرى بين هاشم وأمие تكلف فيها أمية أن يصنع صنيع هاشم ، وكان هاشم - واسمه عمرو - قد غلب عليه لقب هاشم لأنه تكفل بإطعام الموزين من أهل مكة وجيرتها عام الجماعة ، فكان يهشم الثريد وينحر الإبل وتعهد الفقراء ، وفيه يقول شاعرهم :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُستنون عجاف
فأراد أمية أن يناقسه في الشرف ومحبة الناس إياه فعمز عن هذه النزلة . فدعاه إلى المناقرة كعادتهم ، واحتكما إلى كاهن خزاعة بمصفان على خمسين ناقة تنحر بمكة وحلاء عشر سنين من جوار الحرم ، فقال الكاهن سجما على أسلوب الكهان والحكمين جميعاً يومئذ : «والشمر لباهر والكوكب الزاهر ، والشمام الماطر ، وما يالجو من طائر ، وما اهتدى يعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم إلى المائر ، أول منه وآخر ، وأبو همهمة بذلك خابره» .

وأبو همهمة الذي أشار إليه الكاهن هو حبيب بن عامر الذي خرج مع أمية ،

(١) مذوداً : لساناً .

سبقه مع السابقين إلى قبول الدعوة الحميدة . إلا أن هذا الذي تقدم لم يكن شيئاً إلى جانب الشر الذي قول به النبي في بيت عثمان نفسه وبين عمروته وزاينته من جملة الأمويين .

فالحكم بن العاص - عم عثمان - كان يتعمد للنبي ويستنمته ويثني وراءه يحكيه في مشيئته ويخليج بأفقه وفقه ، فقتل إنه عليه السلام التفت إليه وهو يهله الحالة فلزمه ذلك الاختلاج ، وقال فيه عبد الرحمن بن حسان وهو يهجو مروان ابنه : إن الملعين أبائك فسألام عظامه - إن ترم مُسَخَّجاً مسججونا يُضحي خميصاً البطن من عمل النقي ويطل من عمل الحسبييت بطننا وقد لبث على دخلة نفسه بعد إسلامه عام الفتح خوفاً من القتل فكان يتطلع على النبي في داره فراه مرة فقال : « من غديري من هذا الزمعة » ثم أمر ألا يساكنه بالمدينة ، فأخرج مع بنيه إلى الطائف لا يدخل المدينة ما أقام فيها عليه السلام .

ونهم عقبة بن أبي معيط الذي كن يترى بالنبي حتى يجحد في صلاته فيبقى على رأسه سلا الشاء أو يطا على عنقه الشريقة كما قال النبي في يوم بدر : « إنه وطني على عنقي وأنا ساجد فما ريمت حتى ظننت أن عيني قد سقطت » . وكان أحد الأسرى الذين قتلوا بيدركشة ما ابتلى به المسلمون من أذاهم قبل الهجرة ، وفي بيت عقبة هذا أقام عثمان زمناً لأنه تزوج من أمه بعد موت أبيه في صباه .

وتعمد للنبي عليه السلام كثيرون غير هذين من قوابة عثمان وخاصة أهله ، ولم يدخل في الإسلام أحد من بني أمية قبله مع هذه العداوة في أسرته كلها وفي خاصة قواينته منها . فله من فضل هذه السابقة ما ليس لأحد للسابقين إلى قبول الدعوة الحميدة .

ولما أسلم رضي الله عنه أخذه معه الحکم فارتقه رباطاً وعليه وأقسم لا يخليه أو يدع ما هو فيه . فأقسم لا يدعه أبداً ، وصبر على المقاب حتى يش منه عمه فأخلاه .

وروي في سبب إسلامه أن أباه بكر نوح له قواعد الإسلام وهداية الدين الجديد وأنس منه خشوعاً وتفكيراً فقال له : « ربحك يا عثمان ، والله أنك لرجل ما يخفى عليك الحق من الباطل . ماعده الا وثان التي تعبدتها وقولت ؟ البيت حجارة

وخلاصة قصته أن رجلاً غائباً قدم مكة بضيافة فاشترى لها رجلاً فلواه بحقه وأبى أن يرد إليه بضيافته ، فقام في الحجز أو في مكان على شرف وصاح يستميت ، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بني هاشم وأحلافهم ألا يظلم بكفة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وصعدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه في جفنة وبعثوا به إلى البيت ففصلت به أركاناً وشربوه .

وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : « لو أن رجلاً وحده خرج من قومه فخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف المقبول » .

وإن طبعين يفصلهما هذا الفاصل من ذوات النفوس ، لا جرم تتنافران وإن ضمهما بلد واحد ، وإنهما في البلد الواحد لا خلق بالتنافر من المتباعدين .

هذه العجالة عما كان من المنافرة بين بني هاشم وبني أمية في الجاهلية تدخل في سيرة عثمان من مدخل شتى ، وقل أن جر بنا مبحث في عمل من أعماله أو خلق من أخلاق إلا كانت به عودة إلى تلك المنافرة .

فنتها نفهم أن فضل عثمان في إسلامه لا يذانيه فضل أحد من السابقين المعروفين إلى الإسلام ، إذ لم يكن منهم من أقامت أسرته بينها وبين النبي هذه الحواجز الموقية من المناقصة واللاحاة ، وكلهم كان بينهم وبين الإسلام ما كان بين القديم عامة والجديد خاصة ، ولم تبلغ عداوتهم أن تكون من عصبية اللحم والدم أو عصبية البيت كما كانت عداوة الأمويين للمهاشميين ، وليست هذه العداوة في الجاهلية بالشئ الهين ولا بالمعقبة المائلة . فقد رأينا رجلاً من بني عبد شمس كان يمتنى أن يشهد حلف الفقيرول فحمد أن يفعل ذلك خشية الخروج على قومه ببذعة لم يقبلوها ولم يشتركوا فيها ، وهذا مع ما هو واضح من الفارق بين دعوة كحلف الفقيرول لا تنقق ديناً ولا تغير عبادة ولا تميز أحداً من الداخلين فيها بشرف أو سيادة ، وبين دعوة كالدعوة الحميدة تحطم كل صنم وتبدل كل عبادة وثبتت لبنت عبد المطلب شرفاً لا يسمو إليه شرف بين الناس كافة ، فضلاً عن قرشي وأمة العرب بكل من تشتمل عليه .

وما تقدم من شواجر النزاع بين أمية وهاشم كاف للإبانة عن فضل عثمان في

نظن أن رجلا في الثلاثين - وهي سنة عند إسلامه - كان يعصى الله جميعا ويطيع شيخه عقدا لم يكن في ضميره باعث مطاع إلى الإيمان بالدين الجديد .

وفي رسنا أن نتخيل غضب قومه الأقرين من إسلامه ، فقد كان كاشد غضب حتى مسلما من قومه للقيمين على الجاهلية ، ولكنه مع هذا لم يتج أناسا منهم أن يلوذوا به خوفا على أنفسهم بعد هزيمتهم ، ولم يتج أن يتشفع لهم عند النبي وصحبه ويسأله العفو عنهم ، وكذلك نرى أن تاريخ أمية في الجاهلية يقصرنا عند تقدير فضل عثمان في إسلامه وبحضرنا عند تقدير أعداءه ، وعلى أعماله التي أخلت عليه بعد ولايته الخلافة . فقد كان لتدعيم المعصية وتأليبها شأن قديم في تاريخ هذه الأسرة الجاهل إلى استلحاق الأبناء ، من الموالى وإلى توزيع البنين من زوجات آبائهم أو الموالى من زوجات أوليائهم ، ولا ندري على التحقيق م نملل هذه العادة التي انغردوا بها أو كادوا ، إلا أنها قد تملل بأن القوم لم يكونوا من الضموم بحيث يسكنون إلى خمولهم ولم يكونوا من المزة الراسخة بحيث يطمثون إلى عزتهم ، وأنهم - وإن لم يعقمو - لم تشتهر عنهم غزاة للزرة في الجاهلية ، ولا في الإسلام ، وملة سسللة ولاية المهدي أوشكت أن تنقطع في كل بيت من بيوتهم وفي الخلافة بعد قيام الدولة الأموية ، وربما تقوض البيت في جبل أو جبلين وثقى ماصروه من غيرهم عدة أجيال .

وقد انتهت المفارقة بعد الإسلام بين المسلمين من بني أمية وبين بني عبد الغلب ، فما من أموى مسلم كان يتعالى إلى مطاوعة آل النبي بالنسب من جانب أبائه عليه السلام خاصة ، ولكنهم مع هذا - ولا استثناء لأصدقهم إسلاما كعثمان وصحابة النبي - قد كانوا يوردوا لو سمعوا عن أمية بعد سؤاؤه عن عبد المطلب ، وابن وتقدم أن معاوية سأل دغفلا النسابة عن أمية بعد سؤاؤه عن عبد المطلب ، وابن أبي الحديد يورد مثل هذا عن عثمان في أيام خلافته ، وأنه رضى الله عنه حتى رجلا يحده عن الملوك وسر الماضين فذكروا له رجلا يقصير موت ، فكان ما سأل عنه : رأيت عبد المطلب ؟ قال : نعم رأيت رجلا فعمدا أبيض طولا مسقرون الخاجين بين عتيه غرة يقال إن فيها بركة ، وأن فيه بركة . فماد يسأله : أفرأيت أمية ؟ قال : نعم . . . رأيت رجلا آدم دميما قصيرا أعمرى يقال إنه ككده ، وأن فيه نكده . قال عثمان : حسبك من شرمعاه وصوف الرجل . . .

ولا ينبغي أن ينسى العز حيث يذكر لفصل الرجل من سوابق آله وذويه . .

لا تسمع ولا تبصر ولا تغير ولا تتفع ؟^(١) فراجع نفسه وقال : هبل والله إنها لكذلك ، فدعا أبو بكر إلى إلقاء النبي ولقيه فقال له عليه السلام : ديا عثمان ! . . أجب الله إلى جنته . قال عثمان : هوالله ما ملكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، ثم لم ليث أن تزوجت رقية . .

ومن البراثر أن عثمان كانت له خالة اسمها سمدى بنت كبرز تكونت وتصيد ، وتقل عنها أنها هتله بإسلامه وزواجه ، فقالت :

هدى الله عثمان الصفى بقوله فسارشدته والله بهدى إلى الحق
فبائع بالراى لسديد محمدا وكان ابن اوى لا يعد من لصدق
وانكحه البسوث خير بانه فكان كبير مانع الشمس في الاق
وتقل عنها غير ذلك أنها كانت طرقت^(٢) وتكهنت عند قومها فلما رآه بعد قيام
النبي بالدمرة قالت :

أبصر وحيمت ثلاثا تبرى أناك خير ووزيت شبرا
أنكحت والله حصانا زهرا^(٣) وأنت بكر ولقيت بكرا
ولقيتوها بنت عظيم قدرا بنت نبى فسد أنساد دكرا

قال عثمان : هفجيت من كلامها وسألتها : يا خالة ! . . ما تقولين ؟ قالت : ديا عثمان ! . . لك لجمال ولك المان ، هذا نبى معه البرهان ، أرسله بعقه الديان ، فاتيته وأهجر الأوانه . واستزادها قائلا : ديا خالة ! . . أنك لتذكرين شيئا ما وقع ذكره في بلدنا فأبينه لى . قالت : ومحمد بن عبد الله رسول الله عند الله جهه بئربل الله يدعو إلى الحق والهدى .

ويقال إن عثمان إنما ذهب إلى أبي بكر بعد ما سمعه من خالته قرأه أبو بكر مفكرا فسأله وجرى بينهما بعد ذلك ما تقدم من النصيحة والاستجابة على ما اتفقت به الروايات .

ونحن نسط من حسابنا ما روى من كلام الكاهنة ، لأنه ضعيف السند لا يقى منه إلا أن خالة لعثمان كانت تكونت وتعيد ، وأن مسأله الدين في بيته كانت شغلا شاعلا لن يأخذ على المعصية والمعاد أو يأخذ على العبادة والتقوى ، فما^(١) تكونت وتغير بالحق والطراق هم الكهون . (٢) حصان : مفيدة . (٣) البرهدة : ذات لوجه الأبيض

القصي فكان لها فعلها في توجيه شعوره من ناحية ذويه ومن ناحية البيعة بأسرها ، ففاسعت ما في وراثته الأموية من الإبراء إلى ذوى قرياء ، وميات نفسه للفتور من الوضع القائم في البيعة ، فلم يصعب عليه أن ينكر الأوضاع القائمة في نطاقها الأعم الأوسع ، وهو نطاق العشائر الجاهلية ..

ذلك أنه نشأ وهو يحس أن رب البيت الذي نشأ فيه غاصب ينتزع مكان أبيه ، فتصكت من نفسه الريبة في الأوضاع القائمة ، ولم يحتلمها إلا على مضض الكاره وتزقير التريض ، وبخاصة حين تأتي من ناحية الأم التي تمثل لا بها في هذه الحالة كأنها مغلوقة على أمرها متترعة عن هو الحق بها ..

وقد أسلفنا أننا لا نقول كثيرا على الرواية التي تعود بإسلام عثمان إلى نصيحة خالته الكاهنة ، فليس في كلامها مقنع للفكر يحاول رجلا في الثلاثين من دينة وراث بيته ، ولكنها على هذا تدل على دافعية من الشعور لا نعملها ولا نستبعد مكانها من السيرة الباطنة ، ويمرزا أن أسيرة أمه كانت لا تتخلو من عطف قوى نحو صاحب الدعوة إلى الدين الجديد : عطف يبدو من قول أمه : «أمرأنا وأنفسنا دون محمده» وهي كلمة لا ينبغي أن ننسها في مواطن كثيرة من سيرة ابنها رضوان الله عليه ..

ونقرأ وصف عثمان على لسانه معاصره فنراهم مجمعين على صفتين لم ينسهما أحد منهم ، وهما الجمال والحياء ..

كان ربيعة لا بالقصير ولا بالطويل ، حسن الوجه ، مشرف الأنف ، بوجنتيه نكتات من آثار الجدري ، رقيق البشرة ، أسمر اللون ، كثير الشعر ، له جمرة أسفل أذنيه ، وبه صلح مع طول في طبعه وفرازة في عارضيه ..

وكان خفيف الجسم ، ولكنه لم يكن بضميغه ولا معروقه ، بل كان ضخم الكراديس بعيد ما بين المنكبين ..

أما خلاقته فقد أجمع واصفوه علي أنه كان علب الروح حلو الشرائل محباً إلى عارفيه ، ومن ذلك أن نساء قريش كن يرفعن أطفالهن فيقلن :

أحسبك والروح من حب قريش عسما
وكان يوقد أسنانه بالذهب ، ويخضب طبعه ، وربما تركها بغير خضاب ..

وفي كتاب «الرياض النضرة» يروى الحبيب الطبري عن عمرو بن عثمان أن عثمان

نشأته وشخصيته

ترجمة عثمان ترجمة سوية ، لا تستغرب من لاحقها بعد الإسلام شيئا مما نعلمه عن سابق سيرته قبل إسلامه ، وإذا فاجأنا بالقرابة لأول وهلة نستغربه من أثر المناجاة ، ثم نفرد إلى دواعيه فإذا هو مطرود لا قرابة فيه ..

نشأ في نعمة وعيش خفيض ، وكانت ولادته بالطاقف أعصب بطنح الطحاز ، لست سترات مفتت من عام الفيل ، ولم يؤثر عنه أنه اختبر شقظ الجيش قط في صباه أو طلوله ..

ومر ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كان أبوه ناحرا واسع التجارة ، وكان يحمل قوافله إلى الشام على دأب الأكثرين من نغار بني أمية ، وفي إحدى هذه الرحلات التجارية مات عن ثورة عظيمة ، وترك ابنه بين العبا والشباب ..

وإذا صح ما جاء في أسباب الأشراف للبلاذري فقد كان عفان يعمل في حياكة الشياح : «عفان أول حائك لبياكم» ، ولكننا نستبعد جدا أن يجمع الثروة من حياكة الشياح ببذله ، ومن الأرجح إذن أنه كان يدير مصنعا من مصانعها ، أو أنه عمل بها في صباه ثم تحول عنها إلى التجارة ..

وأم عثمان هي أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأما أروى اليقضاء بنت عبد المطلب عمه النبي عليه السلام ، وقد سبق أن أختها تكنون وتنفق للكهانة ، ففي وراثته من جانب أمه جنوح إلى طيبة النديين التي اشتهر بها عبد المطلب وأبناؤه وبنوه ..

ويروى كما جاء في ابن الأثير أن عقبة بن معيط شكاه إلى أمه - وكان قد تزوج بها بعد وفاة عفان - فقال لها : إن أبك قد صار يتعمر محمدا . فلم تذكر ذلك من أينها وقالت : «ومن أولى به مني؟» . أمولنا وأنفسنا دون محمده ..

وقد كان مأثورا في الجاهلية أن تزوج المرأة بعد نكاحها من زوجها أو بعد وفاته ، ولكن هذه العادة المأثورة لا تقع أن يتخض لها إلا من وأن ينكسر لها بينه وبين نفسه ، فيلازمه منها بعض الحجل ولا يراتح إليها بأية حال ..

ويبدو من دراسات علم النفس الحديث أن ومشكلة الأب - قد تحكت من طرية

من أجود ما رأيت ، فيها بطون النعم وأدمها اللبث والسمن فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام ؟ فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال : يرحم الله ابن الخطاب . أكلت معه هذه الجزيرة قط ؟ قلت نعم ، فكادت اللقمة تفرث بين يدي حين أورد بها إلى فمي وليس فيها لحم ، وكان أدمها السمن ولا لبث فيها . فقال عثمان : صدقت ! صدقتا . . إن مصر رضى الله عنه فمب والله من تبع أثره ، وأنه كان يطلب بتيه - أي منعه - عن هذه الأمور ظلمًا - أي غلطًا - في الميعة . ثم قال : أما والله ما أكله من مال المسلمين ولكني أكله من مالي ، وأنت تعلم أني كنت أقرىش مالا وأجدهم في التجارة ، ولم أر أن أكل من الطعام مالا من وقد بلغت مسأ ، فاحب الطعام إلى أئبه ، ولا أعلم لاحد على في ذلك نية . .

ودخل زياد على عثمان في خلافته بما بقي عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فاحد شينًا من نفسه ورضي به ، فبكى زياد . . قال عثمان : وما بيكيك ؟ قال : رأيت أمير المؤمنين مصر يمل ما أتيتك به فجاء ابن له فاحد درهما ، فأمر به أن يتبرع منه حتى أبكى اللعالم ، وإن أبنت هذا جاءه فاحد ما أخذ ، فلم أر أحدا قال له شيئا . قال عثمان : هان عمر كان يبع أهله وزرأته ابتغاء وجه الله ، وأنت أعطى أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله . . ولن تلقى مثل عمر ، لن تلقى مثل عمر . . لن تلقى مثل عمر . .

وفد سجع غير مرة يقول : يرحم الله عمر ، من ذا يطيق ما كان يطيقه !

وصفوة القول في خلايق عثمان أنه كان إلى صفات الطيبة والسماحة أقرب منه إلى صفات البأس والعصاة ، وإن نشأ العيش الخفيض صحبته في صحبائه إلى شيخوته ، وفي غير تيمة عليه كما قال . .

اختصم يوما هو وأبو عبيدة بن الجراح فقال أبو عبيدة : أأنا افضل منك ببلات ، فسك عثمان : يوما من ؟ قال : «الأولى أني كنت يوم البيعة حاضرا وأنت غائب ، والثانية شهدت بدرا ولم تشهد ، والثالثة كنت من ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت» ، فلم ينقص عثمان ولكنه قال له : «صدقت» ، ثم أجابه معذرا فقال : «أما يوم البيعة فإن رسول الله ﷺ بعثني في حاجة ومدة يده عني وقال : هذه يد عثمان بن عفان وكانت يده الشريفة خيرا من يدي . وأما يوم بدر فإن رسول الله ﷺ استخلفني على المدينة ولم يكنني مخالفتي ، وكانت ابنته رقية مريضة

ابن عفان قال : ذكرت رجلا مستهترا بالنساء ، وأنى ذات ليلة بفناء الكعبة في رهد من قرش إذ أتينا نقبل لنا أن محمدا قد أكلح عتبة بن أبي لهب رقية وكانت رقية ذات جمال رائع .

قال عثمان : قد خلتني الحيرة لم لا أكون أنا سبقت إلى ذلك ، فلم لبث أن انصرفت إلى منزلي فأصبحت خالة لي قاعدة وهي سمعة بنت كبر ، وكانت قد طرقت وتكلمت عند قومها فلما رأني قالت : «أبشر وحيت ثلاثا تترى . . إلى آخر الأبيات» ، وردي ما تقدم من حديثها في غير هذا الفصل إلى قوله : «وكان لي مجلس عند أبي بكر فأتانيه فاصبته في مجلس ليس عنده أحد ، فجلست إليه فزأني مفكرا فسألني عن أئري - وكان رجلا متأنيا فأخبرته بما سمعت من خالتي ، فقال : «وربعت يا عثمان إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل» ، ثم قال : فما كان أسرع من أن ير رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب يحمل ثوبا فلما رآه أبو بكر قام فسأره في أذنه بشئ ، فجاء رسول الله ﷺ ثم أقبل على فقال : «يا عثمانا . . أجب الله إلى جنته فأنزى رسول الله ﷺ إليك وإلى خلفه» ، قال : «فوالله ما تخالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإن محمدا عبده ورسوله» . .

وتكرر قصة كبله في كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني ، وفي قصة بلا حظ عليها أن زواج السيدة رقية من عتبة بن أبي لهب قد كان قبل البيعة المنيرة ، فلما بعث النبي ﷺ قال أبو لهب لابنه : «رأسى من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته» ، ففارقها ولم يكن دخل بها . .

فلا يبقى من هذه القصة ما يستحق للتعريف بخلائق عثمان إلا قوله عن نفسه أنه كان في الجاهلية مستهترا^(١) بالنساء ، ولو لم يرد حديث هذه القصة في رواية من الروايات لا علمنا قط أنه كان كذلك في الجاهلية ، لأن أحدا من معاصريه في الجاهلية لم يشهد على حال يحسبها من الاستهتار بالنساء ، فإنهم كانوا يبيحون كثرة الزوجات لمن استطاع أن يجمع بينهن ، وأما نعرف من هذه القصة خلائق عثمان بنعمته وجبانه ، وبقرته علي النعمة والتعفف عما يشينه منها ، وبالخلق الذي لازمه طول الحياة ، وهو خلق ربيب النعمة الكرم . .

وروي عمرو بن أمية الضمري قال : «أنى كنت أتعشى مع عثمان خيرا من طبخ^(١) سيرا بالنساء : أي مولما بهن . .

على هذا التنافس الذي لا يتحلى فيه أخ من أخيه ولا صديق من صديقه . فلا يتقم مسروق على سباق ، ولكنه يعطيه عزائمه على سبقه ما استطاع . . وهكذا ينظر عثمان إلى أكتافه فوجد أنه لم يستقم في ميادين الجهاد بالسيف فإلى على نفسه ليستقيم في ميادين الجود والسخاء ، وثابر على ذلك من أول أيامه في الإسلام إلى ختام أيامه في الحياة ، فهاجر إلى الحبشة وهو يعلم أن ماله كله عرضة للضياع من جراء هذه الهجرة ، فلم يبال ما يبقى منه وما ضاع ، وتقدم في كل محنة أصابت المسلمين من فاقة أو قحط أو نقص في السلاح والمعاد ، فبذل من المبرة والمعطاء ما لم يبله أحد من أمثاله في ثرائه ، وما لم يبله الذين هم أقدر منه على مبرة أو عطاء ، ولم يكن على أية حال باغى الأغنياء .

وكانت له سماعة محببة حيث يعود ويتكلم بكلام التجار في مساواتهم وهو على غاية الجود . .

قال ابن عباس : فحط الناس في زمن أبي بكر ، فقال أبو بكر لا تقربون حتى يفرج الله عنكم ، فلما كان من الغد جاء البشير إليه فقال : لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برا وعلما ، فعدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالفت بين طرفيها على عاتقه ، فقال لهم ، ما تريدون؟ قالوا : بلنا أنه قدم لك ألف راحلة برا وعلما . بينما حتى توسع على فقراء المدينة ، فقال لهم عثمان ادخلوا فدخلوا فإذا ألف وفر قد صب في الدار ، فقال لهم : كم تريدون؟ على شرائي من الشام؟ قالوا : المشرة اثني عشر . قال : قد زادوني . قالوا المشرة أربعة عشر . قال : قد زادوني . قالوا : المشرة خمسة عشر . قال : قد زادوني . قالوا : من زادوك ونحن نجار المدينة؟ . .

قال : زادوني بكل درهم عشرة . . هل عندكم زيادة؟ . . قالوا : لا . . قال : فأشبهكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة . .

ويشير عثمان هنا - كما هو ظاهر - إلى جزاء الحسنة بعشرة أمثالها عند الله ، ولن تعدل في هذا المقام ابتسامة سخف على فم متحلق يقول : أما أعطى وهو ينتظر الجزاء في الآخرة . ؟ فاقعد آمن بالآخرة ألوف من ذوى الأموال التي لا تنفى ، وهم لا يفيرون بلوهم يوثقون من جزائه ما أيقنه عثمان . .

وكان يدخل عرف الإحسان في مصنفات التجارة ، وهي تلك المعاملة التي اصطلح الناس قديما على أنها شيء يتقدم فيه حساب المنفعة على حساب المودة بل

فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها ، وأما انهزامي يوم أحد ، فان الله عفا عنى وأضاف فعلى إلى الشيطان ، فقال تعالى : ﴿وَأُولَ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا بِكُمْ بَينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠﴾

والحق أن تخلف عثمان عن يوم البيعة وعن يوم بدر لم يكن باختيار منه ولم يكن فيه إحجام من خطر مخوف ، بل تخلف في اليومين طوعا لأمر النبي عليه السلام ، أما يوم أحد فقد انهزم معه فيه كثيرون من شجعان الصحابة ، وكانت الهزيمة فيه صدمة من صدمات البيعة التي يكاد النكوص فيها أن يكون دفعة لينة لم يثبت الجاني بعد الصدمة الأولى كما حدث من أكثر المهزومين في ذلك اليوم المعصيب .

يبدو أن الممارك الأخرى لم تحفظ لعثمان موقفا من تلك المواقف الشاذة التي تتناقلها الألسنة ويتسابر بها الركبان من أخبار زملائه الخلفاء ، فإن كان فيها غير مختلف ولا محجم فليست هي بفخرو الأول وفقيلته العليا . إنما كانت فضيلته العليا السخاء حيث يزد السخاء على أمثاله من ذوى الثراء ، ولا سيما ذوى الثراء من بنى أمية الذين شربوا بأموالهم في الجاهلية والإسلام إلا لطنع أو مصلحة ، وعده هي أية العقيدة في مناقب عثمان . .

لقد اشربت النفوس من العقيدة الجديدة غيرة لا عهد لها بجلتها في التنافس بين أكتافها : غيرة في العقيدة وغيرة لها وغيرة عليها ، فجمعت من معاني الغيرة أشرفها وأصدقها وأبعدما عن التنازع بين الناس بالباطل والتلاحي بينهم بالمرض الزائل ، إذ كانت تجمع من معاني الغيرة الشريفة غيرة المحاسة للعقيدة وغيرة التنافس عليها وغيرة الصدق في منافستها ، وأشرف ما في هذه الغيرة الشريفة أنها لم تكن تنزى أحدا بغمط حق لأحد ، أو بادعاء حق لا يؤمن به من يدعيه في قرارة ضميره ، لأنها لم تكن غيرة العرف الشاشر قصاراها الرجاء عند الناس ، بل كانت الرجاء عند الله قصاراها وبيدائها ومنتهاها ، فلا يدعيها مدح بالباطل ، ولا يأسى إذا ادعاهم بالباطل أن يذهب جميعا فلا يبقى لها عنده ولا عند الناس أو عند الله باقية . ومن ثم كانت غيرة بناء وصدق ولم تكن غيرة هدم وأدعاء .

ومضى الناس يتنافسون ، ويؤمنون أن يتنافسوا في مثل هذا الفضل فهم فيه متنافسون محذون وقد رأينا كيف كان الناس في رجاحة أين عبادة وعثمان يتنافسون

القريبة ، ومن يعبرون اليوم عن هذا المعنى ويقولون باصطلاح العصر من يعبرون عن معنى قديم تفاهم عليه المتاملون بالبيع والشراء من أقدم الأزمنة ، فقبل من أخباره في هذه الخصلة أنه ابتاع حائلاً - أى إستناً - من رجل ، فساومه حتى قام على عثمان فالتفت عثمان إلى عبد الرحمن بن عوف فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله عز وجل أدخل الجنة رجلاً كان سمحاً بانماً ومبتاعاً وفابضاً ومقضباً ، ثم زاد البائع عشرة آلاف .

وأسمعت شمائل الساحة فيه بخصال أندر في أبناء النعمة من خصال الكرم والإحسان ، فقد يهون على المرء أن يتجرد من بعض ماله ولا يهون عليه أن يتجرد من بعض كبريائه وخيالاته وتعالبه على أنداده ونظرانه فضلاً عما يلزمهم بالبسطة والجفاء ، وكان المأثور عن عثمان كما روى صاحب الصفوة عن مولاه أنه « كان لا يوقظ أحداً من أهله إلا أن يجده يقظان فيدعوه » .

وروى الحسن أنه « رآه نائماً في المسجد ورداًؤه تحت رأسه فيجىءه الرجل فيجلس إليه ، ثم يهيم الرجل فيجلس إليه ، كأنه أحدهم » .

وربما أخرج كما يخرج أصحاب الحياه حين يجترؤن على حيائهم من هو أرى بتوقيره فيبدر منه بعض ما يسوء مخاطبه ثم لا يلبث أن يندم على بادته ويثوب إلى الله ، ومن قبيل ذلك غصبه على عمرو بن العاص حين واجبه بالزجر وهو يخطب الناس ، فنارت ثورته أن يكون هو من يعظه عمرو بمثل ذلك الكلام وما فيه من إغراء بالفتنة عليه قال عمرو : يا عثمان إنك قد ركبت بالناس النهابير^(١) وركبوا منك ، فنب إلى الله عز وجل ليتوبوا . . . فالتفت إليه مغضباً وأجاب قائلاً : وأنت هناك يا ابن النابغة؟ ثم لم يلبث أن رفع يديه وقال : أتوب إلى الله تعالى . ثم كررها فقال : اللهم إني أول تائب إليك .

فهذه شخصية سمحه ، تساندت فيها مناقب الساحة ، وأوشكت أن تسترلها على مثال منقطع النظير فيمن عرفناهم من الأعلام بين الجاهلية والإسلام : كرم وحياه ودعة ورقن وأرحية وصروة تعين على المروءات . فهل يقال على هذا إنها شخصية سمحة وكفى! هل يقال إنها شخصية خلت من صفات البأس والصرامة ، أو كان حظها من هذه الصفات ضئيلاً لا يلفت إليه؟ هل يقال إنها شخصية ضعيفة بكلمة متيقنة لا تردود فيها؟

(١) لومال الشرية .

من السهل أن يقال ذلك متابعه لجمهرة المؤرخين الذين درجوا على تعليل الحوادث الجلى في عصر عثمان بضعفه واستسلامه لن حوله ، وعلى رأسهم ابن عمه مروان بن الحكم . . . فإن السهولة هنا توحى إلى المؤرخ أن يختار سبيلها ويعفى نفسه من النظر إلى طريق غيرها قد يعترضه فيها اعتراض من حيث لا اعتراض على سالك السبيل السهل اللول .

لكن القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن الساحة نفسها قوة لا يفسطع بها طبع ضعيف ، وصعب على من ينظر في أعماله جميعاً ولا يكتفى منها بأعماله التي يبدو عليها الضعف والتردد ، ولم يكن عهد من عهود سيرته يتخلو من عمل يدل على قوة نفس ومتاعة خلق وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر ، وحسبنا من عهود سيرته ما أحاطه بأطرافها من أول إسلامه إلى ختام حياته . فقد كان إسلامه تحدياً قوياً لحاصة أهله ثبت عليه مع بقاء العملية من قومه بين عدو للإسلام أو مسلم له على دخل وسوء نية ، وقد تلقى في أول خلافته صدمات لم يتعرض للثوارق لا خطر منها في جميع ألامه ، ومنها هزيمة الجيوش ونهائ بعضها بين عوارض الأجواء القصية وانقضاص الروم والخز على أطراف الدولة الإسلامية الحديثة ، وبعض مراقبه في تلك الأيام لا يمكن الرجوع به إلى رأى مروان بن الحكم ، كوصاياه في إعداد الحملات البحرية من التطوعين بشير إكراه على أحد من المجندين ، وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ولا يلدن لمن توعدوه به جهرة ورددوه على مسمعه ليل نهار .

كلا . . . لا يقول القائل عن رجل كهذا إنه ضعيف ، ثم يستريح إلى قوله ، إلا أن يبتغى الراحة ولا يبتغى سواها .

ولكننا نحسب أن مكان عثمان من القوة والمزمنة هو المكان الذي يحتاج إلى التوضيح ، ولا يتضح لأول نظرة في سيرته وحوادث عصره ، فليس هو بالمكان الذي يتراءى على القرب والبعد كأنه العلم البين الغنى عن التوضيح .

من الناس من يقتحم طريقه ولا ينتظر من يبله أو يدفعه بل لعله يقتحمه ويصر على اقتحامه كلما كثر المعارضون له وقل من يبلونه عليه ، ومن شأنه أن يحسم تردد الثروديين واعتراض المسترضين فلا يلبث أن يقومهم معتزماً فيبقاوا له معتزمين .

وسماحة عثمان واضحة هنا أيضاً لأنها فرض كفروض الحساب لا يتأخر به
تقدير الحقيقة المتسببة ، فمن الناس من يأبى الانقياد للأنداد والرواساء حسدا
وتكدا ومن يأبى الانقياد للألباح والأعوان فيها وتجبرا وذهابا مع شهوة الترفع
والاستعلاء ، فهو لا كارتك لا يعرفون السماحة ولا يعرفون بها ، ولو لم يكن
عثمان سمعاً مبراً من الحسد والتكبد ومن شهوة الترفع والاستعلاء ، لما أضنى إلى
ند ولا إلى تابع ، ولا سوغ الإصغاء إليهما بسوغ من المسرعات ترضاه نفسه
وتطمئن إليه .

من أشد ما يروى استدلالاً على ضعفه وانقياده لرأى مروان بن الحكم قسمة
رواها ابن عباس عن أبيه وهو ثقة فيما عاينه وحكاه . قال :

وما سمعت من أبي شيئا قط في أمر عثمان يلومه فيه أو يعذره ، وما سألته عن
شيء من ذلك مخافة أن أجهم منه على مالا يوافقه ، فانا عنده ليلة ونحن نتمشى إذ
قال : أمير المؤمنين بالباب . فقال : اندبوا له ، فدخل فأوسع له على فراشه وأصاب
من المشاء معه ، فلما رفع قام من كان هناك وثبت أنا : فحمد عثمان الله وأثنى عليه
ثم قال : أما بعد يا خال فإني قد جئتك استعذرك من ابن أخيك علي . . . سبني
وشهر أسرى وقطع رحصى وطمن فني ديني ، فإني أعوذ بالله منك يا بني عبد
المطلب . إن كان لكم حق تزعمون أنكم غلبتم عليه فقد تركتموه في يدي من فعل
ذلك بكم ، وأنا أقرب إليكم رحما منه ، ومالت أحدا منكم إلا عليا ولقد دعيت أن
أسط يدي عليه فتركته لله والرحم ، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه .

قال : فحمد المياس الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا ابن أختي فإن كنت
لا تعتمد عليا لنفسك فإني لأحملك لملي ، وما على وحده قال فيك بل غيره ، فلو
أنك اتهمت نفسك للناس اتهم الناس أنفسهم لك ، ولو أنك تولت ما ربيت وارتقوا
ما تولوا فأتخت منهم وأخذوا منك ما كان بكلك بأس .

قال عثمان : فذلك إليك يا خال ، وأنت بيتي وبنيتهم .

قال : فاذكر لهم ذلك عندك ؟

قال : نعم وانصرف .

وهنا ليننا أن قيل : فلما أمير المؤمنين قد رجع بالباب فقال : اندبوا له . فدخل
فلم يجلس وقال : لا تعجل يا خال حتى أؤذلك .

ليس عثمان من هؤلاء . . .
ومن الناس من لا يعرف الحرم تابعا أو متبوعا ولا يشيت عليه إذا عرف إلا ريشا
يلفمه الخطر عنه ، وقد ينشئ من عزوه بشير خطر لأنه من الومى والعمى بحيث
لا يقوى على الثبات . . .

وليس عثمان من هؤلاء . . .

فليس هو معتصما ولا موثقدا عاجزا عن العزم والثبات ، ولكنه وسط بين
الانقياد والسوغ انقياده لنفسه بسوغ ترضاه ، ولا بد له من السوغ للرضى في
جميع الأحوال . . .

إنه يتقاد وسوغ انقياده لنفسه بسوغ ترضاه ، ولا بد له من السوغ للرضى في
جميع الأحوال . . .

هؤلاء أيضاً يختلفون في مسوغ الانقياد للآخرين ، فمنهم من يتقاد لمن هم أكبر
منه ويأبى الانقياد لمن هم مثله أو دونه في المنزلة ، ومنهم على تقيض ذلك من
يتقاد لمن هم أنداد أو يتقاد لمن هم دونه ، ويأبى الانقياد للنفراء والرواساء . . .

ومسوغ الأولين الذين يتقادون لمن هم أكبر منهم أن الانقياد للأكبر طبيعة في
كل علاقة بين رئيس ومرؤوس ، وبينين بهذا السوغ من لاحق له في الرئاسة أو من
لا ملمع له فيها على الأقل إلى حين ، فقد يكون صغيرا يرجو أن يكبر ، أو خاملا
يرجو أن يعرف ، أو ميتدا يرجو أن ينتهي إلى المعظمة كما انتهى إليها من بنفهم
من الرواساء .

أما مسوغ الآخرين الذين يتقادون لمن هم أنداد لهم أو من هم دونهم فهو أنهم
أمروا أن ينسب انقيادهم إلى قوة أو خوف ، وبخاصة حين يكون المنقاد معروفا
الرجاحة والرئاسة ، مساريا لمن يبله ويشير عليه ، أو راجعا عليه بالكفاءة والسلطان .
وكذلك كان عثمان في اعتدائه إلى الإسلام بتسوية أبي بكر الصديق فقد كان
عثمان أجمع لأسباب المرجحة من أبي بكر في عرف عصره : كان من أمية وأبو بكر
من قيم ، وكان أثنى منه وأقدر على مخالفته ، وكان أبو بكر إلى جانب هذا وذاك
يدعوه إلى الإيمان برسول يتمانه مما فيقبل إن شاء ، ويأبى إن شاء ، ولا سلطان له
عليه . . .

وكذلك كان عثمان في أصغائه لمروان بن الحكم حيث أضفى إليه ، فقد كان مروان
كاتبه ونايحه ، وكان أصغاه له لتبر خوف أو ملالة ، وعلمانه بأنه محسوب عليه .

لم يشكهم لا يخطر له أن يكلفهم عملاً كمحل كتابه وزيره ، فأنهم في مقام الأنداد ولهم شاغل عن عمل يرتبطون به إلى جواره .

ولا تقول إن عثمان لم يكن يستمع لروان ، ولا إنه كان يستمع للرواب من رايه ويعرض عن الخطأ منه ، ولكنما نريد أن نقول إن ما بينهما ليس بطاعة الضعيف يلعب به القوى ، وإنه اختار له سبيه الذي يوضح في ميزانه عند عثمان وغير عثمان حين يكون في مكانه .

والسؤال الواجب على أية حال في كل مقام كهذا المقام هو : «ماذا كان أجدر وأجدى من هذا؟» فإن كان الجواب قاطعاً فقد أمكن القطع بالخطأ ، وإن كان الجواب يحتمل رأياً هنا ورأياً هناك فليس التردد بينهما بالدليل حتمساً على الضعيف والاستسلام .

واتباع عثمان لشورة مروان أو لشورة غيره ، لم يكن قط ذلك الاتباع الذي يعاب جملة أو يستحسن جملة ، ولم يكن طاعة المستسلم الذي لا يدري فهم يستسلم ، ولكنه أشد ما يكون من قبيل الحيرة التي يشترك فيها سالكان لا يأمن أحدهما إذا ضل صاحبه ، ومن حار منك كما حار أقرب إليك عن بهتدي وهو في طريق وأنت في طريق .

وتعود فتقول إن شخصية عثمان بما اشتملت عليه من نواحي قوتها وضعفها شخصية سوية ، لا تتناقض بين ما علمناه من أخبارها وأعمالها وبين ما ترجعه من الميزات فيها من فعل اللبنة والمقيدة ، وقد ذكرنا بين مؤثرات البيئة وراثته الأموية ويتمه في صباه ونشأته في بيت يتولا غير أبيه ، وانتمائه من جانب الأموية إلى بيت عبد المطلب ، وعلمنا أن نشير إلى مؤثر آخر يلحق بهذه المؤثرات ولا يورد على أنه مؤثر يترار في جميع الحالات ، ولكنه يورد لأنه لا يهمل في اعتبار بعض النفسانيين .

ذلك السبب هو إصابته بالجذري في شبابه ، وعند بعض النفسانيين أن الجذري يعقب أئرا في بيئة المسلب به إذا أعمل علاجه - بعد سن الطفولة خاصة - وليس إعمال علاجه يوصل بالأمر الجيد .

أما اثر المقيدة فمن الواجب ونحن نتعرف معادن الشخصية الإنسانية أن نشيت من مبادئه في تنويم الأخلاق والتفرقة بين فاضلها ومفقلها ، ويجب هنا التثبت خاصة في الزمن الذي بكثير فيه انحطت بين قيمة الفضيلة وبين التعريف بأسبابها ، فمبطل

«نظرننا فإذا مروان بن الحكم جالسا بالباب ينتظره حتى تخرج ، فهو الذي نشاه عن رايه .

«فانقلب على أبي وقال : يا بني ما إلى هذا - يعني عثمان - من أمره شيء؟» . فإذا أخذت هذه المقصة على عجل فعثمان قد كان أداة لروان يذهب به ويجيه كما يشاء ويضيه على رأى أو يشيه عنه على هواه .

ولكننا إذا تخيلنا عثمان على هذه الصورة وجب أن نسأل : من غير مروان كان يصبح بعثمان هذا الصنيع؟ فإن الرجل إذا كان حين القادة إلى هذا الحد كان على كل موسوس له أن يقوده ، ولا سيما أقربهم إليه وأكرمهم له من حرمه ومساكينه في داره . وقد عرفنا من تاريخ تلك الفترة أو ما قاربها أنه كان يستمع في بيته إلى من يوغر صدره على مروان فلا يستجيب لتوجيهه ، ومنهم نائلة بنت الفرافصة زوجته ، وقد كان للزوجات اثر في قصور ذوي السططان عن عرفوا بالقوة والسطوة لم يقطع في عصر من العصور .

فالطاعة هنا ليست بطاعة نفس ضميعة لكل من يوسوس لها على مقربة منها ، ولكنها طاعة اختيار لسبب له شأنه عند عثمان وإن لم يكن له هذا الشأن عندنا نحن اليوم أو عند ناقديه من معاصريه .

ونحن على يقين أننا اليوم تزداد في الجواب إذا سئلنا : «من غير مروان بن الحكم كان خليقاً أن يعمل لعثمان عمل الكاتب الوزير الذي يعمل له كانه يعمل لنفسه في سره وجهره» .

إننا نعرف رجال تلك الفترة المرشحين لئيل هذا العمل ، فمن منهم يتولاها إذا استغنى عن مروان؟

ليس مروان بأفضل من يكتب للخليفة في عصره ، ولكن الذين هم أفضل منه لا يرتبطون بهذا العمل ارتباطاً ولا يطلبهم عثمان بما يطلب به مروان من خدمته وولائه .

لقد ذهب عثمان إلى الجباس يشكو علناً ويكاد يعم بالشكوى بنى عبد المطلب ، لأنه يحسبهم ذوي حق عليهم ، فإذا خاسرته هذه الشكوى صواباً أو خطأ وخاسرته في أئاس كبتى عبد المطلب على مثل ذلك العيوب أو تلك الخطأ ، فهو لا يخفهم ولذا كبتة يعملون له ويرتبطون بخدمته كارتباط مروان ومن إليه ، ولعله لو

ومما الفرق بين الطبائع هو الفرق بين فئتين من المسلمين تحارب كتابتهما في صف وكلهم مصدقون بجزاء السماء وإطلاق علام الغيوب بما يطورونه في إخفاء ، فالمقدمة الدينية لا تبطل مساحة عثمان ولا تنقص من قيمتها ، وتظل هذه المساحة مساحة مقومة في معيار كل فضيلة ومعيار كل فاضل ، لا يغير منها أن العقيدة بعينها في مبعثها هذا ، أو حركتها بعد مسكون ، أو خلقتها خلقاً من حيث لم تكن . فقد كان مع عثمان الناس من منيته لم يعتقدوا كما اعتقد ولم يزل بينهم وبين الاعتقاد حجاب من عوج العقول وعصى الإبصار وأثرة الجهالة ، وكل أولئك محسوب معدود في مصائر الأخلاق .

وبمعنى هذا القول في تقوم الفضائل والواجب فنفرق بين التقويم والتقدير وبين التمثل والتفسير ، فليست كل فضيلة علانها أو فسرناها شيئاً قد أبطاناً قيمته وقدره ، وليس قولنا إن هذه الروضة تثبت الأياحين والشموات سبطاً ما بينها وبين الغلاة المجذبة من الفرق والأخلاف ، وليس قولنا إن هذا الإنسان شجاع لأنه استمد مناقب الشجاعة من ورائته أو من تعليمه أو من اعتقاده ذاتها بفعل الشجاعة مسبوها بيته وبين الجبان أو بينه وبين الشجاع الذي هو دونه في شجاعته وإدماه ،

فالأسباب تثبت الفضائل والواجب ولا تنفيها ، وهي من أجل هذا جديدة بالإثبات وحديثة بالطلب وحديثة بالثناء ولأنه من تعرف أسباب حسنة لحسن ، وإن من تعرف أسباب قبيحة لقيح ، قلن يصح الحسن قبيحاً لأنه معروف السبب ، ولن يصح القبيح حسناً لأنه معروف السبب وإن قل المعجب مع عرفان السبب كما قيل ، فقد يلهب المعجب ولا يلهب الإعجب . .

والشاعر قد يبلغ غاية الإعجاب بحصى حفيد على بن أبي طالب حين قال :
كـدأب على في المواطن كلها أبى حسين والمرق من حيث يخرج
وأيـن له من ذلك؟ لا أيسرأ إنه إليه يعزقسيه الركبين مرج

تفسير للشجاعة هو غاية التقدير ، وإطال المعجب هو غاية الإعجاب ، وإنا يجتري على الفضائل الإنسانية بتفسير أسبابها من يتحمل للفرع الإنساني كأنه يتحمل لعدو لا يرضيه أن يوصف بخير إلا أن يتعلل لمنايته بملأ ويطل المعجب منه والإعجاب به سواء .



بعض المفسرين أنفسهم أن يكونوا دون المؤمنين بالدين شجاعة وسخاء ، ويقولون إنما كنا غطاءً أن تقدم مثل أقداسهم ، ونسخر مثل سخائهم ، ونكود بألروح وأننا مثل جودهم ، لو كنا نتنظر الجزاء في اليوم الآخر أنصافاً مضاعفة من النعيم والسعادة .

وتلك في الواقع خديعة الطبع للناس ، وإنهم ليزعمون أنهم يشجعون ويحبون لو امنوا بالجزاء بعد الموت والواقع أنهم والعمرون أو مغالطون ، وإن لهم أنساباً صدقوا بالجزاء بعد الموت ولم يتركوا الجبن والشح ولا تركوا ما هو أقيح من الجبن والشح وهو السلب والنفسب والمعدون على النفس والمال . .

فانتظار الجزاء بعد الموت لا يبطل قيم الأخلاق ، ولا يحصل للشجاع غير شجاع ، أو الكرم غير كريم في ميزان الخلق العمود .

قلنا في كتابنا أبي الشهداء : وكذلك يقول من يقول إن الأريحية التي سمت إليها طبائع أنصار الحسين إنما هي أريحية الإيمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت في نصره الحسين فيلهب لساعته إلى جنات النعيم . . فهو لاء المدين يقولون هذا القول يحصلون المنفعة وحدها باعث الإنسان إلى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان ، وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى المراتز الخيرية التي يصاب من جرائها المرد طرماً أو كرها في خدمة نوعه ، بل يسيرون أن أنصار يزيد لا يكرمون جنات النعيم ولا يكرمونها بها ، فلماذا لم يظلموها كما ظلمها أنصار الحسين؟ إنهم لم يظلموها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولا نهم لا يمكن عزوة الإيمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة المظلمة التي يتمليون بها على رمية الموت ، ويقرعون بها رساوس التملق بالعيش ، والفرح للمتعة القريبة ، فلولا اختلاف الطبائع لظهر شفق الناس جميعاً بجناات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنة واحدة في الأريحية والفتاء . . ومرجع الفرق إذن في آخر اللطاف إلى فرق واضح بين طبائع الأريحين وطبائع النقيين .

ومما الفرق بين الطبائع هو الذي ترجع إليه في رجل يتناز بالشجاعة بالالفه ، ورجل يتناز بالسماحة بالالفه ، ولا يتنازرون بزية واحدة ، وكلاهما يؤمن بالشواب والمغالب .

ومما الفرق بين الطبائع هو الفرق بين من يطمح إلى المثل الأعلى ولا يفتح بما دونه وبين من يكفيه من الجزاء أنه يأمن المغالب .

لكن علم الأنساب هنالك وشائع أعراق وأحساب وعروق في الأبدان والأأنفس لا يدونها التراب .

إذا عرف أحدهم نسباً فقد عرف لهبخره أو بهتاج بعدادته أو يعرف بفعل صاحبه وشبههها في ذريته وخلفائه .

وإذا عرف ذلك النسب فهو فلان هذا الذي أمامه ، يساجله المودة أو البغضاء ، ويذكر ما كان له ولآبائه من عزّة ومضاء أو ذلّة واستخذاء ، ويضيف إلى كل نسب رواية عن ملحمته ، أو طريقة من حكمة ، أو ملحمته من فكاهة ، ولا يجد بينها وبين آباءه نهارة فاصلا بين قديم وجديد أو بين مدثور مهجور وحاضر سموع ومدكور .

وقل مثل ذلك في أمثال العرب وشواهد ما وسمازض الاستشهاد بها في مواضعها . .

وقل مثل ذلك في أنشعارها ومدايحها وأماجيبها وبلاغتها ومحاسن المناظيرها ومغازيها . .

كل عدوح كائن حي من مجد ومنعة وجود ومطازلة بلغية والمعطاء ، وكل مادح كائن حي بما استجاشه من طبع وما استقبله من أمل وما خلف وراءه من عطف وحسن ، وما أثار في كلامه من تنافس وتناظر أو من سوابق بين ضائرتهم مذاكر ونسبهم وتعود معها محاسن آباء وأجداد ومساوئ أفعال وأحقاد .

فإذا سطرت تلك الأمثال والقصائد كلما في الورق فهو يفتح صفحات مخترلات ، وإذا تفتتها خوالج بين الصدور فهي حيرات نضاف إلى حياة .

لقد كانوا يعيشون عيشهم المحمل بتجاربه وعواقبه كلما تكلّموا أو استمعوا إلى متكلم من روايتهم وبلغاتهم وثقافتهم ، فلا جرم كانوا يفاضلون أمّ العالم ، بأنهم يتكلمون .

وكان عثمان على علم بمعارف العرب في الجاهلية ومنها الأنساب والأمثال وأخبار الأيام . وساح في الأرض فحول إلى الشام والحبيشة وعاشر أقباما غير العرب لعرف من أطوارهم وأحوالهم ما ليس يعرفه كل عربي في بلاده ، ويحدد في رحلاته تجديده الكثيرة وللمعمل معارف الهادية عن الأنواء وطرباح ومطالع النجوم ومقارنتها في منازل السماء ، وهي مدارف القوافل والأولاد من أبناء الصحراء العربية ، وأبناء كل صحراء .

ثقافة عثمان

نعني في تراجم عظماء الصدر الأول من الإسلام بالكلام على ثقافتهم ومصادر هذه الثقافة من معلومات زمنهم ، ونرى أنها من العناصر التي لا غنى عنها في التعريف بمنازلهم وخصايصهم ، لأن هذه الكفايات قسمة بين قوة النفس والخلق وبين قوة الفهم والتفكير ، ولا تغنى علاقة ثقافتهم بما يفهمون ويفكرون .

وبديه أن ثقافة الأقدمين غير ما نريده بكلمة الثقافة في العصر الحديث ، ولكنه فرق بحسب الأقدمين ويشهد باحتيادهم ودرايتهم بالاستفادة من القليل المبعثر حيث لا يستغاد اليوم من الكثير المجموع اليسر لطلابيه ، ولو أننا جمعنا ودائع الورق مقياساً للثقافة لكانت أوراق تلميذ مبتدئ في عصرنا أضخم من أوراق نوابغ النعنين في صدر الإسلام ، ولكنهم كانوا بهذا المجموع القليل يملكون ما يعجز نوابغنا وأبطالنا ، ويتكلمون في المفصلات فإذا بالكلمة المرحجة فصل الخطاب .

ونحال أن الاختلاف بيننا وبينهم في ثقافتنا وثقافتهم في فرق واحد يحمصر جميع الفروق ؛ وذلك أن الكلمة قد رخصت في زمن الطبيعة وإباحة الكلام أو ابتلاله لن لا يحسن في قول ولا استماع .

كانت الكلمة تسمع وتحفظ ، وتنقل من سلف إلى خلف ، وتتدبج في تجربة كل سامع كانها زيادة صفوية تتولد ولا توت .

كانت بصفة من حياة . .

كانت نضمان كما نضمان ذخائر الآباء والأجداد ، ولو أنها صيبت هذه الصيانة لأول مرة في عصر التنزيل لما استغرب أحد تقديمهم للكلمة التي يملكون أنها مقدسة ويصورونها إيماناً بالفريضة الإلهية ، وما في ذلك غرابة عند الأقدمين أو المحدثين ، ولكنهم فعلوا ذلك قبل عصر التنزيل ، وتعدوا الخرص على ذخيرتها الإنسانية قبل أن يتعدوا الخرص عليها وهي ذخيرة مساوية بدخونها لحياة أبنائهم من الحياة الدنيا ، وهي حياة الخلود . .

إليك مثلاً علمهم الذي كانوا يسمونه علم الأنساب ؛ ما مبلغه من العلم بالمقياس إلى العلم الذي يقابله في زماننا وهو علم التاريخ ؟

أين ذلك ما يستويبه اليوم من لتعد والتجليل والشح والتفصيل والتفريع والتأصيل ؟

ومن هذه الرسائل كتاب إلى عماله يقول فيه :

«... استعنيوا على الناس وكل ما ينهبهم بالصبر والصلاة ، وأمر الله أئيمرو ولا تذاهبوا فيه ، وإياكم والمصلحة فيما سوى ذلك ، وأرضوا من الشر بأيسره ، فزنا قليل الشر كثير ، وأعلموا أن الذي ألف بين الغلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضها عن بعض سيرا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة » .

ومنها كتاب إلى العمال يقول فيه : «إن الله ألف بين قلوب المسلمين على طاعته ، وقال سبحانه : ﴿لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آفَتِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ » . وهو مفرقها على معصيته ، ولا تعجلوا على أحد بعد قبل استيجابه فإن الله تعالى قال : (لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر) ومن كفر داويانه بدوائه ، ومن تولى عن الجماعة أضغاثه وأصليناه حتى يقطع حجته وعذره إن شاء الله » .

ومن كتبه إلى العمال :

«أما بعد ، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يقدم إليهم أن يكونوا جبابه ، وإن صدر هذه الأمة خلفوا رعاة ولم يخلقوا جبابه ، وليرشك أن يصيروا جبابه ولا يكونوا رعاة . فإذا عادوا كذلك انقطع إحياء والأمانة والوفاء . إلا وإن عدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فتمنعهم الذي لهم وتأخذوا بما عليهم ، ثم تشروا بالدمه^(١) فتمنعهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم المدو الذي تتسايون فاستفتحووا عليهم بالوفاء » .

ومن كتبه إلى الجبابه :

«أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم...»

وكتب إلى أمراء الأجداد : «أما بعد فإنكم حماة المسلمين وفادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم ينف عنا ، بل كان على ملا منا... لا يبلني عن أحدكم مكتم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما أرنزي الله أنظر فيه والقيام عليه...»

(١) أي اللصين .

وأسلم فكان من أئمه المسلمين في أحكام الدين وأحفظهم للقرآن والسنة ، وروى عن النبي عليه السلام قرابة مائة وخمسين حديثا ، وقال محمد بن سيرين وهو يتكلم عن الصحابة : «كان أعلمهم بالمناسل عثمان ، ويعد ابن عمر» .

وكان أقرب الصحابة إلى مجرى الحوارات بين المسلمين والشركيين ، فكان من سفراء الإسلام في غير موقف من مواقف الخلاف أو الرفض ، نارة بين المسلمين وأعدائهم ونارة بينهم وبين الأسرى منهم في أرض الأعداء .

وكان كاتباً يجيد الكتابة ، فاعتمد عليه النبي عليه السلام في تدوين الرحي واعتمد عليه الصديق في كتابه البرائق الهامة ، ومنها الوثيقة التي عهد فيها بالأم بعده لحليفه الفاروق .

ووردته معرفته بالأخبار والأنساب وسيأخذه في البلاد بزيادة حسن من مائة الحديث مع ذوى الكمال من الرجال . قال عبد الرحمن بن حاطب : «ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدث أم حديثاً ولا أحسن من عثمان ابن عفان ، إلا أنه كان رجلاً بهاب الحديث» .

ولم يكن حديثه لشرو ولا ثثرة يترجى بها الفراغ بين أهل الفراغ ، بل كان من تلك الأحاديث التي كان يتوق إليها النبي عليه السلام في بعض أوقاته فيتمناها ، وتروى السيدة عائشة من ذلك أنها سمعت النبي ذات ليلة يقول : لو كان منا من يحدثنا؟ قالت : يا رسول الله أقابعث إلى أبي بكر وفسكت ، ثم قالت : أنا بعث إلى عمر؟ فسكت . ثم دعا وصيغاً بين يديه فساره فذهب فإذا عثمان يستأنن ، فأذن له فدخل فأنجاه عليه السلام طويلاً .

ويقل عن المروءة كثيراً من شراهد الأمثال والأشعار ، وكأنه كان ينظم الشعر إن صح ما قيل إنهم رجلوا في خزانته وصية مكتوباً على ظهرها :

غنا لأنفس يئني للنفس حتى يهلها وإن غصتها حتى يقصر بها العظم
وما عسرة فاضير لها إن لغيتها بكائنة إلا سيئبشيمها يشر
ومن ثم يئاس للخر لم يعرف الأسى وفى غيسر الأيام ما وعد الدهر
إلا أنه كتب في خلافته رسائل من المنمط الذي لا يرتضى اللحن نسجه إلى

كتابه مروان . .

ألا فقد والله عيبتكم على ما أقررت لا من الخطاب بطله ، ولكنه وظنكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنستم له على ما أحبيتهم وكرهتم ، ولنت لكم وأوطاكم كنفى ، وكففت عنكم بدى ولسانى فاجترأتم على أما والله لا أنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأحرى إن قلت : هلم أتى إلى . ولقد أعددت لكم أقرانا وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن ثابى وأخرجتم منى خلفا لم أكن أحسنه ، ومظفنا لم أنطق به ، فكفروا عنى المستنكم وصيبكمكم وطعنكم على ولاكم ، فأننى كلفمت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم رضىتم منى بدون منطقى هذا . ألا فما تفقدون من حقاكم ؟ والله ما قصرت عن بلوغ ما يبلغ من كان قبلى ، ولم تكونوا تختلفون عليه . ١٠ .

وهذه الخطبة هى التى قام مروان بعدها بهم بالكلام ويتكلم متوعدا فأسكنه عثمان ، وزى أنها قبلت على الروية لأنه خرج من داره وهو يعلم باجتماع الوفود وحضرها ولم يفاجأ منها بأمر لم يكن يعلمه وهو يتولى الخطابة فيها . .

وهذه النعاذج من كتبه وخطبه لا توجد فى هذا المقام من ناحية البلاغة والبيان مستقلة عن مواضعها ودواعيها ، ولكنها توجد قبل كل شىء لأنها - مع ما تبدى من بيانها - تبدى لنا أسلوب الخطبة الثالثة فى علاقته برعاياه من خلال أسلوب الكتابة والخطابة . . فقد كانت أرائى كتبه الكلام يا نسميه اليوم «الأسلوب الرسمى» أو أسلوب التشريع والوثائق القانونية : تبليغ وتقرير يشير تنسيق ولا محاربة تأثير ، وهو كذلك أسلوب الخلافه التى تعلم أن التقاهم بينها وبين من تخاطبهم مفروغ منه متفق عليه مستثنى عن الإقناع وعن المسحة الشخصية التى يصطبغ بها الكلام إذا وقع الاختلاف فى النظر بين السامع والمتكلم ، ثم يستورد الموقف بالخطبة إلى ما رأياه فى خطابه الأخير ، وأول ما يبدو منه أن الراعى والرعية لا يشعرون إلى قسماش واحد ، وتلك بوادر الملك تظهر فى مضامين القول كما ظهرت على ما نراه فى الأعمال والنيات . .

وبعض هذه الكتب يبدو أنه ويختمه بذكر آيات من القرآن تتوالى فى بيان ما يدعوهون إليه ونهاهم عنه ، وليست هى ما يكتبه مروان لأنه لم يكن يحفظ القرآن حفظ عثمان ، وليس ما تقدم من الوصايا الذى يكتبه مروان غير على عليه . لأنها هى الوصايا التى هى أخرى بحياه عثمان وألفته ووفاته ورجعته لليتيم وإيجاره الوادعة وكرامته للجاجة فى القصاص . لهذا نقول إنها من أسلوبه الذى يوائمه رضى الله عنه ، وأسلوبه ثمة هو ترجمان نفسه ، فإن الرجل يكتب لغيره ليقنعهم بما يحسن أنه مقنع لو كتب إليه ، وهذه كتابة عثمان لا كلفة فيها ولا محاولة ولا إطناب ، إلا الدعوة القوية فى استقامة وسهولة وبساطة لا تقدر فى الناس أنهم يخالفون ما وضح لهم واستقام بين أعينهم من الأمور ، وكذلك كان عثمان بمقل ما يطبعه وما يطاع ، وكذلك استجاب لدعوة أبى بكر حين دعاه إلى الإسلام ، فما هو إلا أن اتجه ذهنه مستقيما إلى حقيقة الأصنام وحقيقة الإسلام حتى قال لصاحبه : نعم . . هو ذلك . .

أما الخطبة فقد كانت على هذا النهج من الكتابة السهلة القوية ، وربما أرتج عليه فلا يثبت للملك ولا يريد على أن يقول ما معناه : سيأتى القول حين الحاجة إلى القول . .

ومن خطبه فى أوائل الفتنة : «إن الناس يملئنى عنهم منات وهنات ، وأننى والله لا أكون أول من فتح بابها وأدار رحاها . ألا وإننى زام نفسى برام وملجها بلجام . . ومناولكم طرف الحبل ، فمن اتبعنى حملته على الأمر الذى يعرف ، ومن لم يتبعنى نفسى الله خلف منه وعزاه عنه . ألا وإن لكل نفس يوم القياسه سائقا وشاهدا : سائق يسوقها على أمر الله وشاهد يشهد عليها بعملها فمن كان يريد الله فليسر ، ومن كان إنما يريد الدنيا فقد خسرها . .»

ومن خطبه بعد تفاقم الفتنة خطبة على الرواية لم تكن مرتجلة قال فيها :

«... ألقه هذه الأمة وعامة هذه النعمة ، عيايون طمانيون ، يروكم ما تحبون ،

ويسترون عنكم ما تكرهون ، ويقولون لكم وتقولون أمثال النعام يتعمون أول نافع ، أحب مواضعهم إليهم البعيد ، لا يشعرون إلا نعمنا ولا يعرفون إلا عكرا ، لا يقوم لهم رائد . . وقد أعيتهم الأمور . .»

الفصل الثالث

من إسلامه إلى خلافته

١ - شؤنه:

مضى من إسلام عثمان إلى مبايعته بالخلافة نيف وثلاثون سنة، شهد فيها من الغير في تاريخ الجزيرة العربية وفي تاريخ العالم من حولها ما لم يعهد العالم قط قبل البعثة المحمدية، وشهد فيها عهد الدعوة النبوية وعهد الخلافة في أوجها على أيام الصديق ثم على أيام الفاروق.

وجمعت المصاهرة بين حياته الخاصة وحياته النبي عليه السلام في بيته مع اتصاله به في الدعوة الكبرى من سنتها الأولى، فلم يفته شيء من أخبار النبوة الخاصة والعامة في حياة النبي، ولم يفته شيء بعدها من أخبار الخلافة في حياة الشيخين، ولم يفته بعبارة أخرى شيء مما نسميه اليوم بأعمال الناس في الدولة الإسلامية...

تزوج من السيدة رقية بنت النبي عليه السلام، وهاجر بها إلى الحبشة فكان أول المهاجرين إليها، ثم هاجر بها إلى المدينة فمعرضت هناك بالحبشة وأذن له النبي عليه السلام أن يتخلف عن وقعة بدر للعناية بها، فماتت يوم ورد البشير إلى المدينة بنصر المسلمين وهزيمة قريش في تلك الوقعة الحاسمة، وقيل إن عثمان كان قد أصيب بالجذري قبل الخروج إلى بدر، فحال مرضه ومريض زوجته دون الخروج إليها مع جلة الصحابة...

وكانت غبطة عثمان بمصاهرة النبي عليه السلام عظيمة، وحزنه لانقطاع هذه الصلة أعظم، فلم يبر بعد ذلك إلا محزوناً مهموماً لفقد زوجته وانقطاع صلته بنبية وأكرم الناس عليه، ورأه على تلك الحال فسأله: «مالي أراك مهموماً؟» قال فيما رواه سعيد بن المسيب: «وهل دخل على أحد ما دخل على يا رسول الله؟ ماتت ابنة رسول الله التي كانت عندي وانقطع ظهري وانقطع الصهر بيني وبينك، فطيب النبي خاطره وزوجه أختها أم كلثوم وبقيت معه إلى أن توفيت في السنة التاسعة للهجرة بعد بنائه بها بست سنوات.

وأشهر الروايات على أنه سمى بذى النورين لأنه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتي النبي عليه السلام، «ولم يعلم أحد تزوج بنتي نبي غيره».

ويقال انه سمى بذلك لأن النبي عليه السلام قال: فيه نور أهل السماء ومصباح أهل الأرض، ويقال انه كان يختم القرآن كل ليلة في صلاته «فالقرآن نور وقيام الليل نور».

وعما أخرجه الحافظ السلفي في سياق هذه الكنية أن إسماعيل بن علقم أنشأ يونس بن خباب ليسمع منه، فسأله يونس «من أين أنت؟» فقال: «من أهل البصرة»، قال يونس: «أنت من أهل المدينة الذين يحبون عثمان بن عفان وقد قتل ابنتي رسول الله ﷺ...» فقال يونس ما فعلوا: «أترأه قتل واحدة فزوجه الثانية من أجل ذلك».

وجواب إسماعيل مفهم، وقصته مع يونس بن خباب عبرة من عبر الدعوة «السياسية» إذا لجأت بالنفوس وغلبت على العقول، فلما يسمى عثمان من أجله بذى النورين يجري على لسان صاحب الهوى في النقد والمعاينة فيمنعه عليه وينهيه على البلد الذي يحبه، ويحسبه قتلاً لينبت من بنات النبي ولا يدور بخلفه جواب إسماعيل أن من قتل واحدة لا يعطى غيرها ليقتلها، ولا يرد على باله مالا يغيب عن مثله من حديث ابن عباس حيث يروي عن النبي أنه قال لعثمان مواسياً بعد موت رقية: «والذي نفسي بيده لو أن عندي مائة بنت تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبلى من المائة شيء».

وحقيق بهذه القصة أن نحضر ما أخلادنا ونحن مقبلون على العمل والتعاملات في الدعوة لعثمان والدعوة عليه، فإننا لو اردون على عمل كثيرة وتعاملات أكثر منها، تسبقها الرغبة في خلق الخاسن أو المأخذ فلا تمعياً مرة يخلق ما تريد...

ومنذ اليوم أسلم فيه عثمان لزم النبي حيث كان ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه، أو في مهمة من المهام التي يندب لها ولا ينفى أحد فيها غناؤه. شأنه في هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعاً، كأنما هي خاصة من خواصهم وشحمهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين بغير حاجة إلى مفاضلة وترجيح.

فمن الصحابة من كان يروح المدينة أو مكة في عمل من أعماله، ومن كان يحضر الغزوات ويغيب عما عداها في مصالحه ومصالح أهله، ما عدا أبا بكر وعمر

وعثمان وعلياً ، فقد أصبح عملهم بعد إسلامهم مقترباً بعمل النبي في مقامه وسفره ، وقد يقترن به فيما عم أو خص من أمره صلوات الله عليه ، وتلك وشيجة من وشائج الواقع غير مدبرة ولا مقدرة ، تجمع بين النبوة والخلافة كما ينبغي أن تجتمعا بحكم القرابة اللدنية بين المهتمين المتلازمين ..

وترك عثمان تجارتها الواسعة لمن يتولاهما عنه من وكلائه وذوي قربة ، وجعل بيته بيتاً لئال المسلمين قبل أن يكون للدولة الإسلامية بيت مال ، فلم يتطلب عمل الرسالة مدداً من زاد السلم أو الحرب إلا نهض به عثمان وحده أو كان أول ناهض به مع القادرين على بذل المال في هذا السبيل ..

شكا المهاجرون تغيير الماء بالمدينة ولم يجدوا فيها غير بئر واحدة يستغيثون ماءها ، وكانت عند يهودى يقالى بشمنها ، فاشترى منه نصفها وغلبه دهاء ، لأنه قسم سقياها يوماً له ويوما لصاحبها ، وأباح السقيا منها بغير ثمن في يومه ، فكان طلاب الماء يأخذون منه كذا ينتم في ذلك اليوم .. ونظر اليهودى قرأى أنه لا ينتفع من نصفه الباقي له بكثير أو قليل فلما باعه بالقليل بعد المغالاة فيه وجبها عثمان لمن يستقى منها في جميع الأيام ..

ولما نلب النبي المسلمين لغزوة تبوك لم يكن عندهم من المال ما يقوم بشقائهما ، لبعده شقتها واشتداد القَيْظ في وقت الخروج إليها ، فتكفل عثمان وحده بنكث نققاتها ، وتبرع للمجاهدين بالطايا والأطعمة ، وجاء بكلف دينار في كفه فتزها في حجر الرسول ، وكرر ذلك غير مرة على ما جاء في جمهرة الأخبار ..

واشترى أرضاً ليزيدها في بناء المسجد بذل فيها عشرين ألف درهم أو خمسة وعشرين ألفاً ، ولم يقصر عن معونة يستطيعها في عسرة أو مجاعة ، مدعوا إلى ذلك أو ملبياً من نفسه داعية التجلة والسماحة ، فلم يضارعه في سخائه أحد من أقرانه ، وكان يحق أسخى الأغنياء وأغنى الأسخياء ..

وعهد إليه النبي في السفارات التي يخشى خطرها ، فلما كانت حملة الحديبية التي تأهب فيها النبي لدخول مكة دعا بعمر ليعثته إلى رؤساء عشائرها ، فقال عمر : «إن قريشاً تعرف عدواتي إياها وغلاتني عليها وليس بين القوم أحد من بني عدى ينتصر لي ، فلو بعثت يا رسول الله عثمان إليهم فهو بينهم أمز مني» وقد بعثه النبي فلم يسلم من سفاهة السفهاء ولم يمتنعهم أن يبطشوا به لولا أن تصدى لهم

ابن عمه أبيان بن سعيد بن العاصي ، وشاع يومئذ في معسكر المسلمين أن المشركين قتلوه ، وكانوا قد احتسبوه ثلاثة أيام يتشاورون في أمره ، فلما دعا النبي جنده إلى بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة ، وضع يده اليمنى على يده اليسرى وهو يقول : هذه بيعة عثمان .. والله هذه عن عثمان في حاجتك وحاجة رسولي ..

وسياتى من أمر الدعوة على عثمان أنهم كانوا يحسبون عليه أنه لم يشهد بدرها ولم يشهد يوم البيعة ، ولا نوب عليه في الرزين ولا سيما التخلف عن بيعة الشجرة ، إذ كان قد تخلف فيها هو أخطر وأعسر من حضور المباحية كما حضروها سائر الصحابة ، وهذه وما تقدمها من حديث يونس بن خباب بعض أذانيته التهم التي تخلفها الفتنة ، ويعلم بطلانها القائل قبل المستمع إليها ..

ومن المهام التي اختصه النبي بها أنه كان يكتب له الوحى عند نزوله ، وكان عليه السلام يناديه متحجباً ويقول له وهو على عليه : «اكتب يا عظيم» واستخلفه على المدينة في غزواته إلى ذات الرقاع ، وأرسله إلى اليمن مستظلاً حين كانت إمارتها إلى على ، وكاد أن يفرده بالعمل فيما تسميه اليوم أمارة السر أو الكتابة الخاصة ، وهى أمارة يضطلع بها من يوثق بصدقه وكياسته ولطف أدائه لا يؤتمن عليه من رسالة أو سفارة ..

لا جرم يروى عنه أبو عبد الله الجبيري في رواية راجحة أنه كان موضع سر للنبي في مرضه عليه السلام ، وفي هذه الرواية ينقل عن السيدة حفصة أنها حدثت السيدة عائشة تذكرها بما كان من هذه المسارة فقالت : «إني كنت أنا وأنت عند رسول الله ﷺ فأعنى عليه فقلت لك : أتريه قد قبض؟ قلت : لا أدري ، ثم أفاق فقال : انصروا له الباب ، فقلت لك : أيوك أو أبى؟ فقلت : لا أدري ففتننا فإذا عثمان فلما رآه النبي ﷺ قال : ادته ، فأكب عليه فساروه بشق لا أخرى أنا وأنت ما هو ثم رفع رأسه فقال : أفهمت ما قلت لك؟ قال نعم ، قال : ادته .. فأكب عليه أخرى مثلها فساروه بشق ما نلري ما هو ، ثم رفع رأسه فقال : ما قلت لك؟ قال نعم سمعته أذنأى ووعاه قلبى ثم أمره فأنصرف ..

كان بين الصحابة منزلة من منازل الفخر يعتدونها بها ويتعارفون عليها وهى منزلة الرضى من رسول الله إلى يوم وفاته ، وكان من الكلمات الجارية على الألسنة في معرض الشاء أن يقال عن الرجل أنه توفي رسول الله وهو عنه راض .

فهذه المنزلة كانت من مفاخر عثمان التي يذكرها ويذكرها له من يحمله، وكان في الطليعة من تحسب لهم هذه المفخرة بين الصحابة، وإنما كان شائبته يتحدثون بتخلقه عن وقعة بدر وعن بيعة الرضوان لينزلوا به منزلة من منزلة تلك التي ليس عليها خلاف.

وصارت الخلافة إلى الصديق وهو الذي أسلم عثمان على يديه وطالت الصحة بينهما من قبل الإسلام وألفت بينهما مشايه كثيرة في الطبع والأخلاق، وكان أبو بكر يعتقد في عثمان الحزم كما قال له يوم فاتحه في أمر إسلامه، وليست هي من كلمات الجملة في مقام الترغيب والارتقاء فما كان أبو بكر بالرجل الذي يرسل الكلمات جزافاً ولا بالتكلم الذي يعيبه أن يجامل أحداً بالصدق الذي يرضيه.

ولم يكن مستغرباً بعد طول الصحة أن يكون عثمان أقرب القربين إلى الخليفة الجديد في أعمال سياسته وأواصر مودته، ولكننا هنا أمام عهد نادر من عهود الإنسانية تتقدم فيه النظرة إلى الدعوة القائمة على كل نظرة إلى ما عليها، وقد يحب الإنسان من يحب لأنه أقرب إلى اعتقاده في نصرة الدعوة والأمانة لها والقلة على خدمتها، وإن هذه الظاهرة العميقة الأغوار لمن أقوى ظواهر العهد وأحقها من المؤرخ بالاتباء إليها، وقد سبقت الإشارة إلى فعلها المدني في الجمع بين النبوة والخلافة وتخصيص الخلفاء الراشدين على غير تدبير ولا تقدم بملازمة النبي في مقامه وسفره وغياهم حين يغيبون بإذنه وفي رسالة من رسائل الدعوة النبوية، ثم ما هي تتكرر في التقريب بين الخليفة الأول وبين أوفق الصحاب لموته وملازمته والاطلاع على مقاصده ونياته، فلم يكن بين أبي بكر وعمر من الصحة قبل الإسلام ولا من المشابهة في الخلق بعض ما كان بين أبي بكر وعثمان، ولكن أبا بكر وعمر كانا أوفق اثنين بين الصحابة للمعمل معاً في مهام الخلافة الأولى، فتلازما وتشاورا وتقارب بينهما في الدعوة ما تباعد في الخلق والخليفة، حتى كان من يريد الوقعة يسأل أبا بكر متجاهلاً: والله ما ندرى أنت الخليفة أم عمر؟ فيقول رضي الله عنه: هو لو كان شاء ..

ويحق لنا أن نقول إن الأمر لم يكن باختيار أبي بكر ولا باختيار عمر، ولكنه كان باختيار المصلحة العليا التي غلبت على كل مصلحة في ذلك العهد النادر، ولأنها لمن وحى الله ..

في أيام أبي بكر لم يكن بعد عمر أقرب إليه من عثمان، وكتب أبو بكر

عهده الأخير وهو على سرير الموت وعثمان إلى جواره على عليه، فلما أفاق سأل: من كتب؟

قال: عمر .. كتبها وهو يعلم أنه لا يعدو بها نية الخليفة المختصر فإن أفاق أم عهده كما أراد، وإن ذهب في تلك الغشية بطلت الحاجة فيما أراد، وانسد باب الفتنة والخلاف ..

قال أبو بكر وهو على سرير الموت مستريح إلى وفاء صاحبه، مطمئن إلى أمانة كاتبه: «بارك الله فيك: بأبي أنت وأمي، لو كتبت نفسك كنت لها أهلاً» ..

هذا هو أسلوب الصديق فيما يرضيه لجماعته وصدقته: كلمة حتى توافق السامع ولا تخالف الحقيقة في ضمير القائل، وما لاشك فيه أن أبا بكر كان يرى في عثمان أنه أهل للخلافة، وإن رأى عمر أحق بها منه ..

ثم صارت الخلافة إلى عمر ولم يكن عنده قريب أو بعيد غير من يقربه عمل أو يعلمه عمل، ولم يكن للناس عنده أقدار غير أقدارهم عند الله وعند رسول الله. وكان يستمع إلى كل ويعتمد على كل، ويستبقى كبار الصحابة جميعاً عنده ليستعين برأيهم ويجتنبهم غواية الدنيا إذا انطلقوا إليها، أو كما قال إنه كان يخشى على الدنيا منهم، فبقي منهم من بقي على رضى وموافقة، وبقي الكثيرون منهم على تبرم وملل، فلم يرسل أحداً منهم في البلاد إلا من أرسله في ولاية أو جهاد، ولم يكن يطيل الولاية لأحد منهم وإن أحسن وأفضل، مخافة على الناس أن يفتنوا بإحسانه وأفضاله، إن لم يخف عليه أن يفتنه الناس.

وكان عثمان ممن بقي معه ولازمه غير مكروه ولا راغب في الرحلة كما رغب فيها الذين لم يرحلوا أرحاله قبل الإسلام، ولم يشتغلوا بالدين لشغفه بعد الإسلام، فركن إليه عمر في طلب الشورى وعمل بشورته في إحصاء الناس والأعطية، وفي بدء السنة بشهر الحرم، وعمل بها في خطته الكبرى وهي خطة العزل بين الإمامة والقيادة في ميادين القتال، فإن إصابة الإمام قد تطمع العدو وقد تيقن الصديق، وليست كذلك إصابة القائد الذي من وزائه إمام يؤوله ويؤلى أئداده وأمشاله من بعده، وهي نصيحة من عثمان لعمر ما أظنها على سرائر المؤمنين في ذلك العهد الأمين: ينصح الناصح ولا ينبغي بنصيحته غير وجه الله، يتقبلها السامع وهو لا يتنهي بقبولها غير وجه الله.

شيء واحد من أنبياء كثيرة يكشف لنا عن أصالة المشكلات والتناقض في عهد عثمان .

فيها هنا فترة من التربية السياسية مرت به وهو بها ولم تهيأ لحليقة قبله ولا بعده ، فهي أطول من فترة التربية السياسية التي تهيأت لأبي بكر مع النبي وأطول من الفترة التي تهيأت لعمر مع النبي والحليقة الأول ، ثم هي أطول من الفترات التي تهيأت للخليفة الرابع على الذي جاء بعده ، لأن علياً رضي الله عنه أسلم وهو صبي ومضت عليه سنوات قبل مشاركته في أعمال الرأي أو أعمال الفعل والإنجاز ، وقد كان إسلام عثمان وهو في نحو الثلاثين ، مشهود له بالحزم والبصيرة ، ومتأهب من اللحظة الأولى للمشاركة في كل خطوة يتعاون عليها أقرب المقربين من صاحب الدعوة ، وبينه وبين صاحب الدعوة عليه السلام صهو ومودة وقوابة ليست بالبعيدة .

وفي هذه الفترة التي تحرس فيها بشئون الدعوة وشئون الخلافة عرّضت كل مشكلة وأرتمت كل خطوة في معاملة الصحابة وسائر المسلمين ، وأرتمت كذلك كل خطوة في معاملة المشركين والمناقبين من مسلمين أو محاربين ومن أناس على المواجهة بين السلم والقتال ، وانفجحت على هذا النحو حدود الإمام وحدود أحوال الرعية ومواضع الترخص والشد في جميع هذه الحدود على اختلاف أحوال السير والعسر أو أحوال التبسط والخروج ، وكان خليقاً به وهو مطلع على كل قذوة وكل سابقة أن يكون اطلاعاً هذا غلة جامعة يستمد بها لولاية الخلافة وتدبير الولايات من قبلها ، وصراطاً يستقيم عليه فلا يعوزه الرأي الواضح ولا التصرف العاجل في أمر من الأمور . .

وهذه هي المشكلة الكبرى . .

بل هذه هي مشكلة المشاكل في عهد عثمان من قبل ابتدائه إلى ما بعد نهايته . .

المشكلة الكبرى كما سوف نتراءى لنا أنه لم يعمل في خلافته عملاً قط على غير سابقة تشبهه في كل شيء إلا في ظروفه وملاساته ، فقد تغيرت كل الظروف والملاسات وهي هي بيت القصيد في كل استعداد لها بالقدوة السابقة . .

لقد كانت له سابقة في كل شأن من شؤونه حتى في شئون زواجه ومصاهرته ،

وحتى في شئون تمييزه وتأليفه للديه ولا أعدائه ، ولكن مع هذا الفارق الواحد الذي هو في الحقيقة جامع لكل فارق خطر على البال ، وهو فارق الظروف والملاسات .

كانت تربيته السياسية عدة له وأي عدة ، كانت مع هذا هي مشكلة المشكلات بين الاستعداد بها والتصرف فيها وفقاً لا اختلاف من ظروفها وملاساتها . .

عدة ولا عدة . .

وهذه هي إحدى التناقض الكبرى التي تأصلت في عهد هذا الخليفة الشهيد . .

وتقيصة أخرى من تناقض عهده تنمذ إلى ميزته العظمى في إسلامه قبل عامة قومه . .

فهذه الميزة العظمى ، ما معناها إذا نحن عبرنا عنها بعبارة أخرى لا تخرج عنها في لبائها وقشورها ؟

معناها القريب البسيط أن قومه تأخروا في الإسلام ، وأنه كان مسلماً من صفوة المسلمين ، إذ كان قومه عامة على لبد الكفر وأسرار العداوة بينهم وبين النبي وصحبه الأبرار ، وكان منهم من يعوذون به وهم كافرون أو مرتدون فيبدو ذلك نكراً منفرداً بين جلة الصحابة ، لأنه كان وحده منفرداً بالمزية التي لم يتفردوا بها مثله ، وهي سبقه إلى الإسلام بين أسرة مصرة على الكابرة والعداء .

ولقد كان العربي يلوذ بالعربى وهما في المسكرين المتناجزين ، وكان عثمان مسلماً يوم أوفده النبي إلى مكة وتلقاه أهلها بالأذى فتصدى لنصرته بعض أبناء عمومته المشركين ، ومضى ذلك في حينه ولم يلتفت إليه ملتفت في ذلك الحين ، لأنه لم يكن بدعاً من عادات القوم قبل الإسلام ولا بعده ، وكان مشركو مكة يهايون المساس بصاحب الدعوة نفسه لملهم أن عشيرته تغضب له إذا جدد الجدد وأصابه المكروه في سبيل الدين . .

فلما انتهى أمر الشرك ، وانتهى عرفه وعاداته ، وبقيت مفاخر الإسلام وسوابقه أصبحت المزية العظمى تقيصة من جانبها الآخر . . وبغير هذا الجانب الآخر لم تكن مزية على الإطلاق . .

يحضرنا في هذا الصدد مثل يستوحيه الذهن قسراً في موقعه من هذه السيرة ، وهو مثل الرؤيا التي فسرها النجومون للملك تفسيراً قفسى عليهم بالعقاب ، ثم فسرها له غيرهم تفسيراً أغدق عليهم النعمة والثواب ، ولا فرق بين التفسيرين في الدلول . .

قال له النجمون أولاً : أن الرزق مشغوبة لأنها تربهم أعزاهم يملكون واحدا بعد واحد ثم لا يلبث الملك أن يهلك على أفاعهم ..
ثم قال له النجمون آخراً : إنها لرزقاً سعيدة تبشرو بالعمى الطويل ، وأنه لا طول عمراً من قومه أجمعين ..
والفسيران واحد في الملل ، ولكن الأول يستخط ويسوء ، والثاني يرضى ويسر ، ولا فارق بينهما في غير التعبير ..
وعثمان رضى الله عليه كان أسبق قومه إلى الإسلام فهذه مزية العظمى ..
وكان كل أهله على الشرك ما عداه ، وهنا تتغير الصفحة في النظر بعد ذهاب الشرك وأهله ، وما بدا في الصفحة الأولى إلا الذي بدا في الصفحة التالية : قريب من قريب ..

ليس من الملوك في أيام عثمان أن يكون الزواج مسألة من مسائل المجتمع ، فلما كانت شئون الزواج تجري على وتيرة واحدة بحكم العادة كانت من شئون الزوج والزوجة التي لا تمنى أحداً غيرهما ، ولكن زواج عثمان لم يجر على هذه التيرة سواء قبل الخلافة أو بعدها .. فكان زواجه على التعاقب من بنتين للنبي عليه السلام تاريخاً في علاقات الزواج يكفى من ندرته أنه عرف في كنيته على قول من أشهر الأقوال .

ولم يختلف بعد وفاة السيدة أم كلثوم عن سنة أمهاله في الزواج من عقيلات البيوت على الأغلب إلى أن توفي عن زوجاته الثلاث رمة وفاخرة وثالثة ، إلا أن زواجه من ثالثة بنت الفرافصة كان من قبيل الزواج الذي يقال فيه أنه مسألة من مسائل المجتمع في حينه ، فقد كان زواج لصحابة من غير المسلمين خارج الحجاز أحد الطوائف التي جلت في المجتمع الإسلامي بعد فتوح العراق والشام ومصر وكان لها أثرها البعيد في تطور البيت العربي واختلاف أغاط الميعة بين ذوى البيوتات من جلة الصحابة ، وبعضها ما دخل على المعيشة العربية بمعدات للأمة الغربية لم تعودها للعرب قبل مخالطتهم تلك الأمم مخالطة الصهر والمعاشره البيئية ..
وتتعدد الروايات في الباعث إلى خطبة عثمان لثالثة بنت الفرافصة كما هو

الغالب في أخبار العصر كله ، وأشهرها أنه سمع بزواج سعيد بن العاص وإلى الكوفة من أختها هند ، وتناقل ذوو قرباه الأحاديث عن كباستها وجمالها وحسن قيامها على أمور بيتها ، فكتب إلى سعيد يخطب أختها ولا يفرقها ، وكان ضب بن الفرافصة قد أسلم ، فأمره أبوه أن يزوجه أختها ثالثة ، وكانت أدبية ذكية تنظم الشعر وتحسن القول ، ولها في زواجها من عثمان آيات مما تنقن به ابن عائشة في بعض الحانها ، ومنها قولها تتخاطب أخاها :

ألست ترى يا نصيب بالله أنسى مصاحبة نحو المدينة أركباً
إذا قلعلوا حزننا^(١) تخب ركابهم كما حركت ربح براعا منقباً
لقد كانت في فتيان حصن بن ضنم لك الوليل ما يغنى الحياء اللطيف^(٢)

ثم قولها تتخاطب نفسها :

فرضي الله حقاً أن غوى غريبة ببشر رب لا تلقين أما ولا أبا
وغادرت قومها في بادية الشام وحواضرها على كره منه إلى مسكنها الغريب ،
وسلمها حين رآها : «ملكك تكرمين ما ترين من شيبى ؟» قالت : «والله يا أمير المؤمنين إني من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكهول» قال عثمان : «أنا قد جزت الكهول ، وأنا شيخ ، ولن تجدى عندنا إلا خيراً» ..

وعلى هذه النقرة بعد هذه القرية توثقت الحبة بين الزوجين حتى كرهت الزوجة الفتية بعد مقتل عثمان أن تتزوج من أحد بعده كائناً ما كان قدره ونسبه ، وتكاثر خطاها فأجبت أن تصرفهم عنها وتصرف نفسها عنهم ، فعملت إلى حجر فلهبت به ثيابها ، وودت معاوية بن أبى سفيان حين خطبها قائلة لرسوله : «ماذا يرجوه من امرأة جلداء ؟» ..

وثالثة هي التي كتبت إلى معاوية تصف مقتل زوجها ، وقالت من خطبها الذي تواترت نسبه إليها : «من ثالثة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبى سفيان . أما بعد .. فلاني أدعوكم إلى الله الذي أنعم عليكم وعليكم الإسلام وهذاكم من

(١) الحزن : خلاف لسهل والجمع حزن .

(٢) أى اللحدود بالأزلة والخيال .

الضلالة وأنفذكم من الكفر ونصركم على العدو وأسبغ عليكم نعمته ظاهرة وباطنة ، وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعم الله عليكم ، فإنه قال : **«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تنفيء إلى أمر الله»** وأن أمير المؤمنين بغى عليه ، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية لحق على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصروه ، فكيف وقد علمتم قلمه فى الإسلام وحسن بلائه وأنه أجاب داعى الله وصدق كتابه واتبع رسوله ، والله أعلم به إذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة ..

ثم استطردت تقص خبر مقتله ، وتهم القصرين عن نجدته .. فما كان صوابها بأدل على الوله والخزن من خطتها فيما اتهمت ، ومن تخبطها فيما زعمت ، فإن خطبا أمهون من خطبائها الذى شهدته بعينى رأسها ليدل الخزين عن سداد رأيه كما قال حكيم المرة فيما دون ذلك :

ربما أفضل الحزينين جوى الحزين إلى غمير لائق بالشداد
مثلمنا فانت الصلاة سليمان فأتاحى على رقاب الجباد
وقد كان لها عند عثمان مثل هذا الحب وهذه الحظوة ، بل كان له من الثقة بنصحها مالم يكن له فى مروان بن الحكم أقرب القربين .. وكأنا يتلاحيان كثيرا فى محضره ، وعيوها مرة أباهما الذى لا يحسن الوضوء فقلت له تعرض بأبيه - وهو عم عثمان - وأما والله لولا أنه غمه وأنه يناله عمه لأخبرتكم عنه مالم أكن أكذب عليه .. وغضب عثمان فتوعد مروان لئن تعرض لها لیسودن وجهه . ثم قال له : **«والله لهنى أنصح لى منك»** ..

إن خلق الرجل لا يقاس بمقياس أصدق من المرأة وأسبر منها لأغوار طبعه ، وقد يعز على هذا المقياس - مقياس المرأة - أن يسبر لنا أغوار عقله وأعماق بديهته ، ولكنه لا يعز عليه أن يفرق بين الرجل الذى يحب ويطاغ وبها وب الرجل الذى تنزل به الألفة منزلة الوهن والعجز فى نظر من بالقونه قبل من يعرفونه على البعد أو لا يعرفون منه إلا القليل .

وهذا مقياس صادق من هذا الزواج الغريب أو الطارى على المجتمع الإسلامى بعد فتوح العراق والشام وسائر الفتوح الآسيوية والإفريقية وهو مقياس قيس به رجال من النابهين على نحو واحد فلم يكن بينهم من هو أرجح فيه من عثمان ،

ولاسيما مقياس الشخصية الغالبة التى تؤثر فىمن يعاشروها ، وتصنفه بصفتها ، كما تأثرت السيدة نائلة بإيمان عثمان ونفواه وكرم نفسه فنسبت نغرتها واختلاف عقيدتها وبينتها وتحفت على سنة زوجها كما قال من وصفوها فى حياته وبعد مقتله ..

وفى ذلك العصر نفسه تزوج أناس من ولادة الدولة العربية بالعقائل والجوارى فى الحاضرة والبادية ، فكان منهم من تعود عاداتهم من الشراب على الطعام وسوغه لنفسه باختلاف المعتقدات فى الحمر وأنواعها ، وكان أمر هؤلاء ومن شاكلهم يرفع إلى الفارق قبل خلافة عثمان فيحسمه على دأبه بتأديب من عصى والتكيد بن أصر على استباحته الشراب المخفور .

ومن لم يبلغ من ضمعه أن ينقاد هذا الانقياد لم يبلغ من شخصيته الغالبة على ذوى جواره وعشرته أى يصبغهم بصبغته ويحولهم إلى معيشة كميسته ، وهذه تيسرون بنت بحدل الكلبية من قبيلة نائلة بنت الفرائصة قد تزوجت بمعاوية ، وداره إلى جانب دارها ، ومقامه فى دمشق أقرب إلى باديتها ، فلم تلبث أن ستمت مقامها وعافت القصر الذى تسكنه زوجة الأمير المؤمنين وأما الأمير بعده ، ونظمت أبياتها التى جرت مجرى الأمثال على لسان كل زاهد فى مقامه حينئذ إلى مالف عيشه الأولى ، وإن كانت دون ذلك المقام فى الرغد والنعم ..

فالت ميسون تذكر القصر والبادية :

لبيت تخفق الأرواح فيه أخب إلى من قسصر مُتيف
وليس عبادة وتفسر عيني أخب إلى من لبس الشفسوف
وقالت تشير إلى زوجها :

وخبرق^(١) من بنى عني نجيف أحب إلى من علب علبيف
فما أبغى سوى وطنى بديلاً فحسبى ذاك من وطن شريف

وذلك مع الفارق البعيد بين قصور الشام وبيوت الحجاز وبين من معاوية وسن عثمان ، وبين ما ترجوه زوجة الخليفة بعد موته وما ترجوه زوجة معاوية وأم يزيد

(١) النسي الكرم الخلق .

الأنساب ، وقد عجزت قصور الملك في دمشق أن تروض أم يزيد على البقاء مع بلها في القصر النيف ، فلم يسح معوية إلا أن يرسلها وابنها إلى بانيها عسى أن يستفيد من تلك المنشأة منعمة في اطلق تواتيه يوم ينهض بأعباء الدولة التي أعدمها له من صباه ..

ثاناً كانت خلائق عثمان هي التي حببت إلى زوجته من تلك العشيرة أن تقارق النشأة التي عجزت مغارقتها على أترابها فلن يرد على الخطر أنها خلائق رجل أمة أو رجل هزيل يلعب به من يلعب ويحى به من يحيى ، ولا بد لتورده وحيرته حين يقع منه التردد والخيرة أن يثاب بهما إلى باعث يعمل عمله في طابع الأقوياء وغير المستغفمين ولا ينحصر عمله في النفوس التي برئت من القوة وتخلصت للضعف والهزال ..

وقد ولدت له نائلة بنته مريم ، فكان ما يخطر على البال أن هذه التسمية من إيعاء أمها ومن بقايا حنينها إلى عقيدتها الأولى ، ولكن لسم مريم كان من الأسماء المحببة إلى عثمان وقد سمي به بنته من أم عمرو بنت جندب ، وهو أشبه أن يكون نجية للزوجة المخلصة من أن يكون متآبها فيما لا تعاب المتآبنة فيه ..

تزوج عثمان على التعاقب تسعا من النساء ، ومات عن ثلاث منهن هن : نائلة وفاخنة ورملة ، إذا صح أنه طلق أم البنين وهو محصور .

وقد ولد له تسعة من الذكور وسبع من الإناث ، ولم يولد له من بنتي رسول الله رقية وأم كلثوم غير عبد الله ابنه من رقية ، عاش إلى السادسة ثم تفر عنه دينك فور وجهه ومات ، وسائر أبنائه من زيجاته الأخريات لم يؤثر عنهم أمر ذو خطر في التاريخ ، وهي حالة من حالات السلالة الأموية لا تخزم بتأملها على وجه واضح ، فهم على خلاف بني هاشم الذين بقيت فيهم بقايا النجاة والمزية على استمرار العمل في أصولهم وفروعهم ، وأما كان بنو أمية في المشرق والغرب يعقبون كانوا يأتى المقب منهم على قدر القسوة ، مع أنهم قد اتخذوا الجوارى إلى جانب زوجاتهم وتزوجوا من قريباتهم وغير قريباتهم ، فإذا تسلسل النسب منهم جيلاً أو جيلين لم يفس على سوانه في الجيل الثالث ، أو يزوجون الولد ولا يزوجون فيه النجاة والنسب ، وربما كان للنسب الدخيل في أصولهم الجاهلية أثر في هذه الحالة

شقيقته أمة رب المشارق وسيدة القصور تكاد أن تنفرد فيه وأن تغلو وتروج بن الحاضرة والبادية حين تشاء ..

هذه لحمة من سلاسل الشخصية العثمانية لا تعمل في مكانها من سيرته الخاصة ، ولعلها أدلى للمؤرخ من شيم كثيرة توضح له خلائق التي يؤثر بها فيمن حوله ، ولا شك أنها تزود وضوحاً إذا انضحت معها ملامح الشخصية التي تأثرت بهذا الأثر ، وهي السيدة نائلة التي جاءته ناثرة تنعى غربتها وزواجها من غير بنى عموميتها ولم تلبث أن تحففت وأخلصت لبلها في وفائها واعتقاده ..

فهذه شخصية قوية من بيئة عريقة في القوة والاعتزاز بالعرف والقوة وقومها بنو كلب إحدى القبائل التي هجرت موطنها قديماً في الجزيرة العربية وحافظت على أرومتها وعصبيتها وقصاحتها ، فكانت إلى ما بعد الإسلام بمدة قرون مرجعاً لمن يتقضى أساليب المصمحي أو يريد أن يشتق أبنائه على شخصية البادية وصحتها ، ومهما تصمد مع أصولها في القدم تجد في أخبارها - بل في أسمائها - لونا من ألوان هذه العصية وهذه المشونة وهذه المراقبة البدوية التي لا يسهل على أبنائها وبناها أن يخلطوا بخلق غيرها ..

وتنسب هذه القبيلة إلى وبرة بن تغلب بن حلوان بن عصفوان بن الحطاف بن قضاة ، ويقول النسابون : «إن وبرة ولد له كلب وأسد وغر وذب وعلب وقهد وضيع ونب وسيد وسرحان» ثم يزيدون على ذلك بعد الإسلام : «إن من أشرب كلب العرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة ، وهو الذي تزوج عثمان بن عفان ابنته نائلة بنت الفرافصة ، ومنهم زهير بن جلاب بن هبل بن عبد الله بن كنانة ، ومن أسلافهم في الإسلام دحية بن خليفة الكلبي وهو الذي كان جبريل عليه السلام ينزل في صورته ، ومنهم حسان بن مالك بن جذبة ..»

ويؤخذ من بعض أخبار الكنيسة الشرقية أن رؤساهم دانوا بالمسيحية تلبية لدعوة الرسل الأولين في بادية الشام قبل أن تدن بها الدولة البيزنطية ، خلافاً لما قد يُقطن من أنهم دانوا مع الدولة القائمة في بلاد الروم ..

ولما كان مقطع القول في ذلك فلا مرء في قوة هذه القبيلة وعراقتها واعتزازها بأصولها واعتدادها بأبنائها وخشونتها كأنها ضرب من الإيمان أو أسرة من أوامر

نظرة الإنسان إلى الحياة ، وملا الذي غير المجتمع العربي ، وغير المجتمع الإسلامي ، بعد اتساعه وامتداده إلى أقصى مدة في خلافة عثمان .

إن الفنى الترف من عرب الجاهلية لم يكن يتجمل من ترفه ، ولم يكن يحسب أنه يتخلص به شيئاً ليس من حقه ويستمتع بشيء لا ينبغي لكرمه ، بل كان يندخ في ترفه ويماخر نظراءه يندخه ، ومن لم يدرك من الترف والندخ حقا كحظه فهو متطلب له ، حاسد عليه ، ناظر إليه كما ينظر إلى أمنية الحياة ، إن فاته فقد فاته من حياته خير ما يتمناه . .

تغير هذا بعد الإسلام كل التغير ، وأصبح الترف وذيلة مزدراه كائناتاً ما كان نصيب الترف من الجاه والثر ، وأصبح الثراء نعمة دون النعمة الكبرى التي يتطلع إليها المسلم في حياته الجديدة ، فهو وسيلة دون غاية ووسائل في حاجة إلى تسويق ، ثم لا مسوغ للترف فيه بآية حال .

وعلى هذا كبر مقدار الثروة التي يتعم بها أصحابها بعد أن تغير النظر إلى كثيرها وثقلها ومسوغاتها وحظوظاتها ، فزيتا بليت ثروة الرجل الواحد في خلافة عثمان ما يعادل ثروة السادة الترفين جميعاً على آخر عهد الجاهلية ، وما يحسب حتى في زماننا هذا غنى مفرطاً عند أغنى الأغنياء .

قبل في مصادر متعددة إن عبد الرحمن بن عوف خلف ذمها كان يقطع بالثوروس حتى تغفل أبداً الرجال ، وترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ، وقسم ميراثه على ستة عشر سهماً فبلغ السهم ثمانين ألف درهم ، وكان يوزع بالجرف على عشرين ناقصاً ويختار فيكسب من التجارة مائة الألوف .

وكان كلما اجتمع له من الربح مدحج كثير فوقفه على الخزانة وتصدق به على الفقراء . قال ابن عباس : فرض عبد الرحمن بن عوف فأوصى بثلث ماله فصيح فتصدق به ، ثم قال : بأصحاب رسول الله ﷺ كل من كان من أهل بدر له على أربع مائة دينار ، فقام عثمان وذهب مع الناس ، فقبل له : يا أبا عمرو أليست غنيّاً قال : هذه وصلة من عبد الرحمن لا صدقة ، وهو من مال حلال ، فتصدق عليهم في ذلك اليوم بمائة وخمسين ألف دينار .

وكان كلما اجتمع له عدد من العبيد اشتقهم ووصى لهم بما يكرههم ولا مات الزبير بن المرام طلب أبنائه وميراثه ، فأبى عبد الله أن يقسم بينهم حتى

الخلافة ، وأقرب من ذلك إلى التعميل المقبول أن أولئك الوصول في الجاهلية لم يعمروا في الغادة والمباشرة كما شاع عن بعضهم ، فلما بهم من الآفات الجنسية ما كمن في أفعالهم وتداركوه باليتنى تارة والاستلحاق تارة والتسلك بين ذوي القربى حيث لا موضع للتبني والاستلحاق . .

وتنمى نوعي إلى هذه الملاحظة بسبل المكلام على ذرية عثمان ، لأنها ملاحظة شوهدت في تاريخ الوصول الأموية وشوهدت في نسله وشعرته ، وشوهدت في أعمال خلافة ، فلها محل فيما يخص أو هم من سيرته وتاريخه . .

٢ - شئون المجتمع :

منذ أسلم عثمان إلى أن تولى الخلافة تغير المجتمع العربي في نطاق واسع ، وأصبحت المصيبة الإسلامية نوعاً من المصيبة العالمية يكاد أن يقرب بين أساليب المعيشة في جميع أم الحضارة الشرقية والغربية .

أسلم عثمان والمعوة الإسلامية محصورة في أحاد معدودين بالشعور النجاة بمقتائهم وأنفسهم وذريتهم من مجتمع إلى مجتمع ومن بلد إلى بلد ، وصاحب الإسلام في جهاده وفترجه حتى عم الجزيرة العربية قبل وفاة النبي عليه السلام ، وأصبح بذلك ديناً عربياً يجمع بين قبائل العرب على اختلاف الأنساب والطبقات .

ثم صاحب الإسلام في جهاده وفترجه أيام حروب الردة وفتح العراق وما جاوره من أرض فارس والروم ، ثم صاحبه في جهاده وفترجه حتى أوشكت هذه الفتح أن تحيط بالمسلم المعمر يوم تسلم زمامه من سلمه العظيم عمر بن الخطاب .

ولم تقف سننات من خلافة عثمان حتى أحاط العالم الإسلامي بالمسلم المعمر كله إلا ما كان منه في أقصى المشرق أو أقصى المغرب ، فاصبحت المصيبة الإسلامية كما أسلفت ، صيغة عالمية تشمل العربي والفرسي والرومي والبربري ، وتسلكهم كلهم في دولة واحدة لأول مرة في التاريخ . .

وليس الذي طرأ على المجتمع العربي خاصة أنه عرف الترف ولم يكن يعرفه ، أو عرف الثروة وكان محروماً منها ، فإن الترف والرفق قدعان في الجزيرة العربية ، وزيادة المقدار لا تحسب من التغير الجوهري في المجتمع إن لم تكن مصحوبة بالتغير في

فلما استقر الأمن في الجزيرة العربية امتلئت الفتوح إلى العراق والشام وفلسطين وسهمس ، وأطانت القنوازل على هذه الطرق شرقاً وغرباً وإلى الشمال والجنوب ، واتسعت مواصلات التجارة المالية في تلك البقاع ، لم يكن مورد في العالم قط أعظم ولا أربح من هذا المورد الذي تهبأ لببوت التجارة المربقة في قريش ، ويكفي أن يسلم هذا المورد سنة في كل سنتين أو ثلاث لينضم منه التجار الكبير الكوف الأول ، ويأخذ من ربح سنة ما يعرض وقف التجارة سنوات .

ومن العلوم في المصور الحديثة أن شركة الهند الشرقية جمعت الملايين من أرباح تجارة دونه هذه للتجارة في السمعة والفضمان ، إذ كانت تؤدي المصاريف والأثارات في البحر والبر . ولا تلك خطوطاً من المواصلات كذلك الخطوط التي تهبت لأصحاب التجارات في الحجاز ، أما أصحاب هذه التجارات فلم تكن عليهم ضريبة مفروضة غير الزكاة ونفقات الحراسة ، وكانت أرباحهم مبدناً خالصاً أو عملة مقبولة في كل جهة من جهات العالم يومذاك ، دون أن تتعرض لتقلب المصاريف في الأسواق بين أقصى المشرق في الهند وأقصى المغرب على الشواطئ الأطلسية . فإذا قام على هذه التجارة العالية عشرون بيتاً أو ثلاثون بيتاً من بيوت التجارة العربية في مكة والمدينة فليس من المبالغة أن يقال عنها أنها كانت تلك الملايين وتعمل الفلوس في حطام الذهب والفضة ، فربما كانت المبالغة هنا إلى القلة لا إلى التزبد في التقدير .

وبهذا أن نلتفت إلى مصدر الثروات من التجارة تصحيحاً لوجه المرامين أنها قد اجتمعت كلها من غنائم القتال ، فإن عملاء المقاتلين لم يكن يتفاوت هذا التفاوت في الأنصبة بين أكبر عطاء وأصغر عطاء ، ولم يكن في وسع طلحة ولا الزبير ولا عبد الرحمن بن عوف أن يجمعوا من أنفصال القتال ثروة تزيد على نصيب الأجناد بقل ذلك الفارق الكبير .

وليس هذا كل ما يهم من تحقيق مصدر الثروة أو من الرجوع بأخوه إلى التجارة دون غنائم القتال ، إذ المهم في الواقع أن المجتمع الذي تدور ثروته على الأعمال التجارية غير المجتمع الذي تدور ثروته على أعلية الجند من غنائم القتال دون سواها ، فهما مجتمعان متغايران في آداب المعاملة وفي موازين الأخلاق وفي المنظر إلى منع الحياة ، وإذا النقيما مما في أقل من عصر الرجل الواحد فلا قرار ولا تقاسم بين موازين التجارة وموازن الجهاد إلى حين .

ينادي بالموسم أربع سنين من كان له على الزبير دين فليأتنا فلتقمسه ، لأنه كان يؤمن على الودائع من يترددون على الحجاز للتجارة ، فلما انقضت أربع سنين قسم بينهم ما بقي من ماله خالصاً فرداً هو خمسون ألف ألف ومائتا ألف . وكان طلحة يمل بال عراق ما بين أربع مائة ألف إلى خمسمائة ألف ، ويمل بالسرة عشرة آلاف دينار ، وكان لا يبيع أحداً من بني تميم عاتلاً إلا كفاه مؤونة عياله ، ويروج إياهم ويغني دين غارهم ، وأخرج صاحب الصغرة فيما أخرج من أخباره أنه باع عثمان أرضاً بسبعمائة ألف حملها إليه ، فلما جاء بها قال إن رجلاً تبيت هذه عنده في بيته لا يلدري ما يطرقه من أمر الله للزبير بالله . فبات ورسله تمتلئ في سكك المدينة حتى أسحر وما عنده منها درهم .

ومن سمدى بنت عوف امرأته أنها دخلت عليه يوماً فرائته مغموماً فسأته ، ما شأنك؟ . قاله المال الذي عندي قد كثر وأكرى ، قالت : وما عليك؟ . . . انقسمه قسمه حتى ما بقي منه درهم ، وقال خازنه : كان المال الذي فزقه يومئذ أربع مائة ألف . . .

ونحن لا نذكر في عظم هذه الثروات التي توافرت لهؤلاء النخبة من أجلاء الصحابة شيئاً فشيئاً من أيام النبي عليه السلام إلى ما بعد قيام الدولة الأموية ، ولا تجرى على عادة المعدفين الذين يتلقون أخبار المصور الماتية جملة واحدة بالشك أو بالنفي من غير بيته ، فإن الرضى المطلق كالتسليم المطلق كلاهما من الآيات التي تحكم حكمها بغير تصرف ولا انتقاد ، ومن الجائز أن الثقات لم يتحروا الدقة في حساب الأرقام بالملايين والألوف والئات كما نحسبها اليوم ، ولكن الذي نمتقده أن مقادير تلك الثروات أكبر وليست ما توجبه تلك الأرقام ، لأنها اجتمعت من أربع التجارات في جميع المصور ، وهي التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب من طريق العراق والشام والجزيرة العربية مجتمعات .

لقد كان الملا من قريش أغنياء مغربين في العنى أيام الجاهلية ، وكان موردهم كله من مواصلات الحجاز بين اليمن والشام ، ولم يكن لهم فوق ذلك سلطان على بقعة وراء الحجاز ، بل كان سلطانهم في الحجاز نفسه عاجزاً عن تأمين قوافلهم بغير السائمة بينهم وبين قبائل الطريق . . .

هذا خاصة - ونحن بصدد ترجمته - يصور لنا شعور النبي والفريق يومئذ بشرف المعطاء الذي يخص به البديريون ومن هذا حلولهم في غزوات الجهاد ، فقد كان عثمان رضي الله عنه يفرق أضعاف ما أخذه من عبد الرحمن بن عوف ، ولكنه اشفق أن يدخل البديريون في حساب ولا يكون هو مشاهم من المشاهير فيه ، وبخاصة حين غيره بعضهم أنه تختلف عن غزوة بدر ، ودفع عنه هذا التمييز بما اعتذر به من إذن النبي له بالتخلف ومن حساب سهمه في الغنيمة وهو غائب ، فمثل هذا الشعور الذي يشمل المواصل والوصول من الغزاة والمجاهدين لا يجعل الشرة الكبيرة مشكلة يفتق بها المجتمع بين أغنياء وفقراء ، إذ هي ودائع عند الأغنياء يحرمون على فقيرها ولا يحرمون على اكتنازها واستيفائها ، ثم هم لا حاجة لهم إلى اكتنازها واستيفائها لأنهم كانوا يحافظون الترف ويرضون عنه إعراضهم عن وصحات الخلق التي لا تجعل بالرجل في دينه ولا في دنياه وكان أحدهم يشكو الحكمة فلا يسمح لنفسه بلبس الحرير وهو قادر عليه إلا أن يتأذى في ذلك رسول الله فيأذى له على سبيل القضا لا على سبيل التسلط من الرسول في لباس المسلم وطامه ، لما كان هذا التسلط ما يفرض الرسول لنفسه أو يفرضه المسلمون للرسول في غير ما يتولاها من التبليغ والتشريع ، وقد كان الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف عن أذن لهم الرسول بلبس قميع من الحرير في بعض الغزوات ضرورة لا ثراء ولا سربا ، والقام غير مقام الترف والسرف في شكة الجهاد .

وإنبات الخلافة الأولى على عهد الصديق ومشكلة الثروات الكبيرة مكتوبة ابلصاح علوكة الزمام ، ثم أحس الخليفة الأول بزمها يضطرب في يديه بعد اتساع التجارة وامتداد الفتح ، فأتخذ الجيلة لفتيتها واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين مومتهم له في الرأي والعمل ، وبين تخبثهم الفتنة وشارق الولاية ، وكان يطلع من ترخص بعض الصحابة في أمور تؤذى عما بعدها فقال لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت : « ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد من وجهي ، أي وليت أمركم خيركم في نفسي ، تكلكم ورم أنه أن يكون له الأمر دونه ، ورايت الدنيا قد أثبتت ولما تقبل ، وهي مقبلة حتى تتخلوا ستور الحرير ونضائد الديبايج وحتى يلم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأبيض - أي المنسوب إلى أرييجان - كما يلم أحدكم إذا نام على حاك السدانة .

ثم قال يظله ويحطو : « والدي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير

قال محمد بن سيرين : «كثر المال في زمن عثمان فبغت جارية يوزنها وفرس بائنة ألف درهم ، ونخلة بألف درهم» .

ولما الذي كان يقال عنه في الزمن الماضي أنه وفرة الخير ووفرة الرزق . . . ولما الذي تقول عنه اليوم أنه آفة والتفهم في النقد مع فارق بعيد بين أحوال عصرنا وأحوال المصور الماضي : ذلك هو الفارق بين عملة الورق وعملة الذهب والفضة ، فإذا رخص الذهب والفضة كما حدث في تلك العصر فقد رخص المال في جرمه ولم تكن لغة غريبة في كل الذهب التي تقسمها لوزن العبد ، ولا حيلة في مثل تلك الحالة لمن يعيش على مورد محدود ولا يقتنى من الذهب والفضة ما يكفيه من الكعاف ، وليست لغة ما يشتري من المتاع المغلوب ، وبعضها يطلب ولا يوجد عند طلبة في الأسواق .

هذه الأزمة بلغت خاتمتها في خلافة عثمان ، ولكنها بدأت بعد الهجرة إلى المدينة واستئناف سير القوافل إلى رحلى الصيف والشاء بفتح سنوات .

والإسلام لا يتبع التجارة ولا ينكر الثروة ، ولكنه يتبع الترف وينكر كثر الذهب والفضة ، ويأمر بإبقاء المال في المنافع والرائق كما جاء في القرآن الكريم **«لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَبَيْنَكُمْ»** ويتفق أشد التقية أن يترق أناس وبعدم أناس آخرون . . .

ولم يصعب على المجتمع الإسلامي تدبير مشكلة الثروات الكبيرة في السنوات الأولى من الدعوة ، أو على الأصح أن الثروات الكبيرة لم تكن مشكلة من مشكلات المجتمع في تلك السنوات سواء من جانب الأغنياء أو جانب الفقراء ، فإن أصحاب تلك الثروات كانوا يتوزنون بها ويشفقون من فقنتها ويسارعون إلى تزيئها على مستحقها من الغزاة والمجاهدين وعلى المحرومين والمغربين ، وكان تخصيص الغزاة بالوصلات التي تأتيهم من قبض تلك الثروات تشريفا لهم يتناقضون عليه ولا يأنفون منه ، بل كان منهم من باي أن تقوته حبة يراد بها أهل بدر أو غيرهم من أصحاب المنازي والسرايا ، كانه يرى في ذلك إكثارا لصقته وكرامته وسابقته في جهاده ، وقد تقدم أن عثمان ذهب مع الناس إلى عبد الرحمن ابن عوف ليأخذ حصته من المعطاء الذي بشر تقريظه على البديريين ، وبوقف عثمان

عبد الرحمن يقول: إنه لم يأتنا إلا ما جاءكم ولم نعلم ما قد علمتم، ولكننا ابتلينا بالفراء فصرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصير^١

وقد دعا الأمر بعد قيام المارقين بالخلافة إلى مضاعفة الجبهة في كل تدبير جلا إليه الصديق على اتفاق مع صاحبه لا انتهاء الفتنة ومصاحبة التغيير المارقين بالإباحة التي تلائمهم، وجعل يستند في جبطه كلما تباعدت المسافة بين المجتمع الإسلامي في أوائل عهد الدعوة وبين هذا المجتمع بعد استئصال المارقين فأرسى التفرقة والشام وعصر إلى حدود إفريقية الشمالية والسودان . . .

فمن سياسته في ذلك أنه تأثر على استيغناء كبار الصحابة إلى جواراه في المدينة، وكان منهم من يسأله الخروج للفرز والجهاد فيشبهه عن ذلك ويلقى في روعه معذرتيه المشهورة: «إن له في غزوه مع رسول الله ما يكفيه ويبلغه» . وهو خير له من المنزلة اليوم» ثم يقول له: «خير لك ألا ترى الدنيا ولا ثرواتها» .

وانتهج في محاسبة الولاة خطة حاسمة لا هودة فيها مع أحد من أحسن أو أساء، فرأيتهم جميعاً أند مرابية وانخذ موسم الخلع موعداً لمرجعهم وسماح أحوال الرعية عنهم، ومنهم من كان يهرله ويستدعيه إليه لغير خيرية يؤخذ بها إلا أنه لا يريد - كما قال غير مرة - أن يحمل فضل عقله على الناس، وأنه يخشى أن يفتن الناس به إن لم يفتن هو بالناس مع فتنة السلطان وفتنة التجارح .

وحظر على القائلين أن يهلكوا الأرض والمغار، وكان له كما قلنا في عقيرة عمرو «نظام اقتصادي يراعى مصلحة الدولة في عبده، فكان يحض على التجارة ويوصي الفرشيين ألا يبلبهم أحد عليها لأنها ثلث ثلث، ولكنه أبى الأرض لا يأتها في البلاد المفتوحة ونهى المسلمين أن يلكوها على أن يكون لكل منهم حظاً من بيت المال كعطائه الجدة في الجيش القانين، وإذا أسلم أحد الداعمين أخذت منه أرضه ورعت بين أهل بلده وورثه له العطاء، وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارده وراثتهم وأن يستقيم الجند الإسلامي من فتن النزاع على الأرض والمعاراة ومن مكن الدولة والاستعمال بثبوتها وانظام ورعا أغصى عن كثير في سبيل الإغاثة على تمصير البلاد بأهلها ففصل عن أهل أسود - العراق - لاسموا البقاء فيه . مع أنهم احتجوا بالعهد وأغاروا الفرس على المسلمين في أثناء الفتنة، وبلغ من كلامه

له من أن يخوض غمرات الدنيا، ثم أنتم عندما أول فساد بالناس بيناً وشمالاً . ولا تقصروهم عن الطريق . بأهادي الطريق جرت^٢

ولم يكن عمر بحاجة إلى التحذير من عواقب انقلاب الصحابة في الانقراض، بل رجا كان يحذرهما حيث لم يحذرهما صاحبه، ولكن الصديق رصموا أنه لم يس تخذيره في موقف الأمارة فقال له وهو يتجود بسمه: «واحد هؤلاء السفسر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين استغضت أحوالهم ولطمحت إحصائهم وأحب كن امرئ منهم لسمه وإن منهم خيرة عبد ربة واحد منهم، فأياك أن تكونه، وأعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله .» .

كلمات لا تدري كيف تحيط بما فيها من فهم لكل شيء في بابه وفل موقعه فهم لطبايع الناس، وفهم للخطر كيف يأتي ومن أين يبدأ، رلة واحد تسميها خيرة من الكثيرين، وما إذا يعد ذلك الخطر من الرلة ومن الخيرة؟ . تصدده القدرة بولي الأمر، فلن يزالوا خائفين منه ما خاف الله . وهكذا قد كان .



على أن المشكلة ظلت في قبضة الزمام على عهد عمر، بين قوة الخليفة وتوقع الأجداد من الصحابة، وشراغل الجهاد والفتن قبل استئصال قساياه وثقاتهم، وما يربح الصحابة المكسار بتورعون من الشغلان بالثروة إلى ما بعد أيامه، فكان أقدمهم على التجارة وتشر المال عبد الرحمن بن عوف فيجمل أن يراه أحد حضرة إلى شئون متاجره ومزارعه، وحديث ابنه إبراهيم عنه فقال: «إن رجلاً زار المدينة ليلقى أصحاب رسول الله ﷺ فلقبهم جميعاً إلا عبد الرحمن بن عوف، وسأل عنه فقيل له إنه في أرضه بالجرف، فلما جاءه اللقاء وافضاً رداه ويده مسحة يحول بها الماء فاستسعى عبد الرحمن وأخذ رداه ولقى المسحة» .

قال إبراهيم: «فسلم الرجل ثم قال: جئتكم لأمر ثم رأيت أعجب منه . . هل جاءكم إلا ما جاءنا وهل علمتم إلا ما علمنا؟ . قال عبد الرحمن ما جاءنا إلا ما جاءكم وما علمنا إلا ما علمتم فقال الرجل: فما لنا نتردد في الدنيا وترويون فيها ونخف إلى الجهاد وتتناقرون عنه وأنتم خيارنا وسلطاناً وأصحاب نبينا ﷺ؟ . . فناد

توزن في حلد الخمر؟ .. وكان من سألهم عبد الرحمن بن عوف فقال : نرى أن نجعله كأخف الحدود ، فجلده فيه ثمانين ..

ثم انتهت خلافة عمر والجميع الإسلامي مجتمعاً ، . أحدهما ماضٍ ولا يمضي بأجمعه ، والآخر مقلٍ ولا يقل بأجمعه ، وأوشك عمر على قوته أن يحار يقض بأجمعه ، وقال الشعبي كما تقدم أنه قضى وقد أوشكت قريش أن غله لشده في نديره ، وقال الشاعر وقف حائلًا بينها وبين نجاتها ومطامحها في دنياها الجديدة ، ووقوفه لها بحيث وقف حائلًا بينها وبين نجاتها ومطامحها في دنياها الجديدة مع بين ماضٍ يمضرم ، وحاضر يتقلب ويكاد أن يهزم ، ولكن الثقة به لم تضعف مع طواعية المجتمع الجديد بل زادته هذه الطواعية ثقةً على ثكنين ، وجمعت من يخالفه يخلج من مخالفيه ، فكان تلك الثقة القوية والاستطاعة "شعورية" تغلب محض الغرائز ولا تستسلم لغرائبها . وبمننا لا نجد لهذه المغالاة مثلاً يبرزها كما يبرزها مثل عبد الرحمن بن عوف الذي بلغ غاية النجاح في المجتمع الجديد وكان قطباً من أعظم الأقطاب في مجتمع الدعوة والخلافة الأولى ، فإنه شهد بدراً والشاهد كلها ، وكتبت له حصة وأتية من أنفال الغزوات وغنائها ، وفانست نوريته من التجارة والزراعة حتى لزقها بعد مرة ، وعاش إلى أيام عثمان وكان صاحب القول الفصل في اختياره للخلافة لأنه ارتضى أن يخلع نفسه منها ليكون له الرأي فيمن يختار من المرشحين لها ، فهو بحق مثل نادر للمغالاة النفسية بين ما استقبل واستدير من حياهه على عهد النبي صلوات الله عليه وعهد عمر وعهد عثمان ، وقد كان كما أخرجه البخاري يقول كلما رأى وفرة المال عنده : «خشيت أن تكون حسناً قد عجلت لئاء» . وكان يصوم ثم يؤتى له بالتمام فيقول «قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ثكنين في بركة إن غلب رأسه بدت رجلاه ، وإن غفيت رجلاه بدا رأسه ، وقتل حمزة وهو خير مني ثم يوجد له ما يكفن فيه إلا بركة ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط وقد تحسبنا أن نكون حسناً قد عجلت لئاء» ..

فهذه المغالاة شحنة المجتمع الجديد ، وتلك الثقة بالعارف ، وتلك القوة فيه ، قد حفظت زمام الدولة في قبضة وليها ولم تذهب بالمخالفة له إلى مدى أبعد ما سماه

في أخريات أيامه أنه كان على نية النظر في تصحيح النظام الاقتصادي وعلاج مشكلة الفقر والتي على نحو غير الذي وجدها عليه فقال : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فقير أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء» ولم يرد في كلامه تعصباً لهذه النية . ولكن الذي نعلمه من أنه في هذا الصدد كان لاستخلاص ما كان يربوه فصر على جبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبداً بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في السنن الاجتماعية ، فكتب إلى أبي موسى الأشعري :

«يلني أنك تائن للناس جماعاً غيراً ، فإذا جاءك كتابي هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا معكهم فأذن للمامة .. ولكنه لا رأى الخدم وقرباً لا يأكرون مع ساداتهم في مكة غصب وقال لساداتهم مؤثراً : ما لقوم يستأثرون على خدامهم؟ ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة في جفان واحدة ..

«والمساواة في أرب النفس لم تكن عند عمر بما ينفي التفاصل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والمعلات ويعرضون عن العمل واتخاذ أئمة ، فكان يقول لهم في خطبه : «يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم» .. فقد وضع الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين ، وكان يوصي الفقراء والأغنياء معاً أن يتعلموا المهنة ، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء .. فيسوغ لنا أن نقم من هذا جميعه معنى ما اتراه من أخذ فصول الغنى وتقسيمها في وجوه البر الصالح .. على أن عمر يصح أن يسمى مؤسسا للديوان الخيري على الوجه الذي نهده الآن . فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الفقراء الذين لا يجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضاً بخير فاستشار النبي ﷺ فيها فاستحسن له أن يعيس أصلها ويتصدق بربيعها ، فجعلها عمر لإتباع ولا توريث ، وينفق منها على الفقراء والمغزاة وغيرهم ، ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ويطعم صديقاً فقيراً منها» .

وكان عمر يستقضى عادات المسلمين في معيشتهم حيث تقرقوا من بقاع الدولة الإسلامية ، فسأل من عنده من أجلاء الصحابة : أن الناس قد دروا من الريف فما

الفصل الرابع المبادئ

إذا لمحضست سنة الصدق أو سنة الفارق في تولية العهد بعدهما ، كانت خلاصتها أنها إبراء للذمة أمام الله ، ذرءا للخلاف ، وحرصا على الوحدة الإسلامية . .

ولا بد من استحضار هذه الحقيقة لنج كل شبهة ، وتأويل كل قصد ، ورفع كل فرية عند تحليل الطريقة التي اختارها كلاهما لتحقيق هذه البنية واختلفا فيها ظاهراً ، ولا اختلاف بينهما باطنياً فيما قصدا إليه

فلا تدبير هناك ولا احتيال لغاية بريان إليها غير تلك المصلحة أو تلك الوحدة . ومن ظن أن الصدق قد اختار عمر ليقص عن الخلافة غيره ، أو ظن أن عمر قد اختار جماعة للشورى ليرجع الكفة في جانب واحد منهم على سواء فهو ينكر عليهما الإسلام ولا ينكر عليهما حق النية أو حسن التدبير وحسب ، فإن أحدا يؤمن بأنه محاسب على نيته وعمله إذ يودع الدنيا ويستقبل الآخرة ، ، لن يحتال ولن يدبر لهواه وهو يعلم أنه يقص الله بما يفعل ، ولو كان لاحدهما هوى في أحد لا يختار أبو بكر من بني تيم ، واختار عمر من بني عدى أو بني الحظاب ، وما كان ينبغي لهما الهوى وهما في سطوة الدنيا وجه الولاية ، فكيف ينبغي لهما وهما مقبلان على المرت مؤمنان بحساب لا شك فيه ؟

لم يكن هناك نظامان دستوريان كما وهم بعض الحديث الذين أرادوا أن يعتبروا بألفه الدساتير المعصرية نظاماً لتولية العهد في سابقة الصدق أو سابقة الفارق ، وإنما هما نظام واحد يتبعه كلاهما في موقع صاحبه ، فما تحسب أن أبا بكر كان مسمياً أحداً بعينه لو كان في موقع عمر ، وما تحسب أن عمر كان محجماً عن التسمية لو كان في موقع أبي بكر ، وليس ليبحث عندهما أي أولياء العهد أفضل وأحب إليهما ، ولكننا البحث الذي بينهما وبينهما : أيهم أحب إلى المسلمين وأنهم أن يحسمهم على بعة واحدة وكلمة متفقة ، ولا يقل أن أحداً منهما كان يعلم في طريقه أن ثمة وسيلة غير الوسيلة التي اختارها لتحقيق الوحدة المنشودة ثم

الشمى بالليل وأحسن في وصفه ، فلم لم تكن هناك ثقة مكنية بجلواز الأمر لليل إلى السخط والتمرد ، ولقي هناك من يتنرد ليقص مع الناسى ومن يتنرد ليقبل مع المستقبل ، ولكنها حالة لم تدم طويلاً بعد خلافة الفارق إذ كان في الناس من يقصب باطلا ولا يتحمل من يقصبه بالباطل ، وكان منهم من يقصب حقاً وليس هو على يقين أن ولاية الأمر أحق منه وأجدر بالفضل والشفاعة ، وكان منهم من يحارب بين الفريقين ولا يدري كيف يهتدى في حيزه إلى الصواب .

ثم حضروته الوفاء فلم يعهد في بادئ الأمر لأحد ، ونقل إليه حديث الناس إذ يقولون : «إنه غير مستخلف ، وأو كان له راضى إيل أو راضى غنم ثم ترك رعيته كان قد فوط في أمانيه ، فمناذا يقول الله عز وجل إذا لقيتهم ولم يستخلف على عبادي» ، فأصابعه كناية ثم ركس رأسه طويلا ثم رفعها وقال : «إن الله تعالى حافظ الدين» ، وأى ذلك فقد سن لي ، إن لم استخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف وإن استخلف فقد استخلف أبو بكر»

وعاده في هذا الحديث فجعل يسأل كثيرا يسأل نفسه : «من استخلف؟» وروى عمر بن ميمون الأودي أن قال بعد ذلك : لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته وقلت لربي إن سألني : سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى لربي حديثه حيا استخلفته وقلت لربي إن سألني : سمعت نبيك يقول : «إن سألنا شديدا حديفة حيا استخلفته» ، فقال له العميرة بن شعبة : «أذلك عليه . عبد الله بن عمرو» . الحلب لله تعالى . . . فقال له العميرة بن شعبة : «أذلك عليه . عبد الله بن عمرو» . فتهرو قائلا : «فأنتك الله والله ما أردت الله بهذا» . ويحك! كيف استخلف رجلا عزيز عن طلاق امرأته؟ لا أرب لنا في أموركم ، فما حمدتها فارتب فيها لأحد من أهل بيتي ، إن كان خيرا فقد أصبحنا منه ، وإن كان شرا فقد صرف عنا . بحسب الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمه محمد . أما لقد جهدت نفسي وحرمت أمتي ، فإن غيبت كفافا لاؤد ولا أجزائي لسعيد»

ثم قال : «الظفر ، فإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ، ولن يضيع الله دينه»

وراجع نفسه وراجع في الاستخلاف مرة بعد مرة فقال : «ما أردت أن أخطأها ، وراجع نفسه وراجع في الاستخلاف مرة بعد مرة فقال : «ما أردت أن أخطأها ، حيا وريثا . عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة ، وهم : علي ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، وسعد ، والزبير ، وطلحة ، فليخساروا منهم رجلا ، فإذا ولوا منهم ولينا فاحسروا مؤازرته وأعيونه»

ثم دعا بهم محضروا إلا طلحة كان غائبا ، فقال لهم : «أني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قدس رسول الله ﷺ وقرع عنكم راضين . وأني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكني أخافكم فيما يسبكم فيخلف الناس»

ورويح رأسه وقد ترفه الدم ، فتناجروا بينهم حتى أرفعت أصواتهم ، وقال

يعدل عنها ، ليأتم في حق ربه وحق دينه وحق رسوله وحق المسلمين كافة ، تبرعا منه بالأثم حيث لا حاجة ولا مصلحة ولا فرصة بعدها للندم والثوبة .

حضرت الوفاء أبا بكر ، فسأل نبرا من نخبة الصحابة عن يتولى أمور المسلمين بعده ، فلذكروا عمرو وأشار بعضهم إلى شدته ، فقال لهم أن كان يشتد لا نه يراني رفيقا فإذا وكل إليه الأمر فلا خوف من شدته . وروى محمد بن سعد أن جماعة من الصحابة دخلوا عليه لا عزم على استخلاف عمر ، فقال له قائلون منهم : «ما أنت قائل لربك إذا سالك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غافلته؟» فقال أبو بكر : «أجلستني» ثم جلس فقال : «أبالله تخوفوني؟ خاب من تزود من أمركم بظلم ، أقول : أني قد استخلفت عليهم خير أمالك .. أبلغوا عني ما قلت لكم من وراءكم»

ثم اضطلع رجاء عثمان بن عفان فجعل على عليه : «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر في آخر عهده بالدينيا خارجا منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، أني استخلفت بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا ، فأنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وأياكم خيرا ، فإن عدك فذاك الظن به وعلني فيه ، وإن بدل فلاكل امرئ» ما اكتسب ، والظفر أرت ولا علم لى بالغب ، وسيعلم للدين ظلموا أى منقلب يتقبلون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

وكان على وذكرك غشية ، فلما قال : «استخلفت بعدى» ولم يذكر اسماء عثمان وصيته باسم عمر بن الخطاب . ثم أفاق أبو بكر فسأل : «ماذا كتبت؟» فأعاد عليه العبارة كما زادها ، فدعا له وبارك عليه ، وقال له : «هكذا الظن بك ، لو كتبت اسمك لكنت لها أملا»

والقوم في معرض الحاسية لأنفسهم أمام الأمانة المعظمى لا يعظمون وتخاف الجملات التي يتلوى بها طلاب اللطف ورواد الأندية في زماننا هذا وقبل زماننا ، فما كان عمر لينتجى عن الأمانة وقد اختبر لها وهو يعلم أنه أقدر عليها فإنه محاسب على إنكاره حقه كما يحاسب على إنكار حق غيره إذا اجتمعت له صفة الولاء دونه . فكان يتولى الخلافة وهو يقول : «لو علمت أن أحدا أقرى على ملائمة الامر منى ، لكان أن أقدم ، فتضرب عني ، أحب إلى من أن ألقيه»

وتستهنون في سعة من الوقت إلى قرارهم وهم وادعوا آمينون أن يصيبهم مكرهم من مغبة ما قوروه .

ولو كان تفكيرهم لمطر يتكلم به أو طعنة يسكن إليها لقد كان حسبه أن يبرئ ذمته بالعلمانية إلى الذين في حراسة الله ، أو كان حسبه أن يبرئ ذمته بما جرى عليه الأمر في عهد رسول الله ، ولكنه لا ياتمس علناً يقال وحسب ، أو حجة تفتح وكفى ، بل يسأل نفسه ويحاسبها على اختلاف الأمور بين عهد وعهد وتباين الأعداء من حال إلى حال ، فلا يدع من جوانب القضية شبهة يوردها من يحاسبه إلا أوردها لنفسه ، كأنها هو حامل الجوانب .

فمن سأل من معجزات المعاند في كواكب لسماء أو أطوار الأرض فهذه معجزة المعجزات التي تأتي بها الحقيقة في نفس الإنسان : تخرجه من خوف الصحراء كثر لا عقل المفضلات بخلفه ، وكثر لها بعقله ، وكثر لها بعمله ، وظل من الشعور بالتيارات لا يجرى ، وظل من القدرة على التفرغ بها يطول الزمن بأبناء الحضارات قبل أن يلفوه وقبل أن يعرفوه . . .

ومن آيات بعد النظر في سبر أغوار الرجل أنه جعل للترجيح بين أصحاب الشورى رجلين : هما عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، فأما عبد الله بن عمر فهو الذي نجاه عن المشاركة في الخلافة وأعداه الترجيح بين المختلفين وليس له من الأمر شيء ، وأما عبد الرحمن بن عوف فلم يلبث أن نحى نفسه ليقبل حكمه ، فكان بحق أصلح المشاورين لترجيح إحدى الكفتين .

ومن آيات بعد النظر في الاختيار وسبر الأغوار أنه أقام أبا طلحة الأنصاري على رأس خمسين عن يختارهم لقمع الفتنة في مهادها إذا اختلف المشاورون ، فكان أبو طلحة عند ظنه حوزاً وثيقية قال للقوم وقد تنازعوا الرأي : «لقد حسبكم تتعاقدونها ولا تتنافسونها» . ثم أقسم لا يعاينهم لحظة بعد الأيام الثلاثة ، ثم هو صانع بهم ما أمر به أمير المؤمنين

ومن آيات بعد النظر في الاختيار أن اختار صهيياً للصلاة بالناس ، فهو الإمام الذي لا تختص له دعوة من تقديده للصلاة ، ولا يأبى الناس أن يأثروا به وقد أسهم قبل ذلك . .

ومن آيات بعد النظر في الاختيار وسبر الأغوار أنه اختار طلحة مع الستة وهو

عبد الله بن عمر : «سبحان الله أن أمير المؤمنين لم يمت بعداء قسمه فانيته ، وقال : «أمرضوا عن هذا ، وإلا مات فتشاوروا ثلاث أيام ، وليرسل بالناس صهيياً ، ولا يأت اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر» . فكان قدم في الأيام الثلاثة فأخضروه أمركم ، وإن مصيبت الأيام الثلاثة فامضوا» . . .

ولفت سائلاً : «ومن لم يطلعه» قال سعد بن أبي وقاص : «أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله تعالى» .

وقال لأبي طلحة الأنصاري : «أبا طلحة ، إن الله طالعنا أمركم بكم الإسلام ، فاختير خمسين رجلاً من الأنصار ، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم» : وقال لصهيبي : «هل بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل هؤلاء الرهط بسبنا ولم على رؤوسهم ، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاندح رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما وإن رفض ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحككموا عند ابن عمر ، فإن لم يوصوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف واقتلوا الباقي إن رضوا عما اجتمع فيه الناس» .

على هذا الوجه أبرأ عمر ذمته من قضية الاختلاف . .

وعلى هذا الوجه نرى عقل رجل من أولئك الرجال الأفذاذ يعمل في تعقيلات هذه القضية التي واجهته بجمع عقداً ومخاطرها لأول مرة في حياته ، وهو يدارك تلك الحياة : يقلبها على جميع الوجوه ، ويفرض لها جميع النتائج ، ويترك أبوابها مفتحة منها ما ينبغي أن يفتح ، ويعلق منها ما ينبغي أن يعلق ، ويلاقي من جانب ما يحسنه من جانب ، ويختار الرجل لم يختار الخلفه على كل احتمال من احسان أو إساءة وس وفاق أو شقاق ، ويفعل ذلك في غمرات الموت بته صرعات الألم من جراحه القاتلة ، ويصالح به أمراً لم يصالح من قبل على هذا المثال أو على مثال غيره ، وكأنما هو من خيراء الاختصاص في دساتير الحكم درسها وتلقى دروسها من استأذنها الذين سبقوه إلى تقريرها وتزوين وقائعها ومواقفها ، وجلس ليوافق ويقابل ، ويوافق ويرافق ، ومن حوله الأحرار يلبون ما يطلب ويستدركون ما يفتور ،

بينهم مقام الحكم الذي يبرح بين المسلمين ، فقال له إن إيمانه يرجع بنصف إيمان الأمة ، وقال عنه لابن عمر : نعم المرء . ذكرت رجلاً صالحاً إلا أنه ضعيف ، وهذا الأمر لا يصلح له إلا الشديد من غير عطف ، اللين من غير ضعف ، الجواد من غير صرف ، المسك من غير بخل .

ورأيه في الزبير أنه مؤمن الرضا كافر الغضب ، وقد صارحه برأيه فيه فقال له : «لعلها لو أنفتحت إليك ظلمت يومك ثلاثم بالبطحاء على مد من شعير» .

ورأيه في سعد أنه أهل لها . فكان تولوه فهو أهل ، ولا فليستمن به الولي فولي لم أعزله عن ضعف ولا خيانة ، وكان يقول : «إذا روى سعد حديثاً فلا تسألوا عنه غيره لضعفه وأمانته» .

وكان يقطن مع هذا أنه لا يليها «إلا أحد هذين الرجلين : علي وعثمان فان ولي عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولي علي ففيه دعاية وأخرى به أن يحملهم على الحق» .

وقال لعثمان : «كأنني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك ، فحملت بني معيط على رقاب الناس ، وأترتهم بالقي» ، وقال لعلي مثل ذلك عن بني هاشم ولم يذكر النبي ، «وإذا صح ما جاء في إحدى الروايات^(١) أنه قال لعثمان بعد مقتلته الأولى : «فسارت إليك عصاة من فؤادك العرب فذبورك على فرائسك ذبعا» فإنها لمن نبوءاته التي جعلته من الخدثين ، أي من الذين يتحدث إليهم بلسان الغيب ، كما قال عنه النبي عليه السلام . .

ولا تخوف عليهم من الناس إذا انفقوا كما قال لهم حين دعاهم للمشاركة وانتخاب واحد منهم للخلافة ، فليس أسلم عاقبة ولا أصدق حجة من اتفاقهم على إسناد الخلافة إلى أحدهم . فكان اتفق أكثرهم فأبو طلحة مأمور بحسم الفتنة قبل أن تتجم والقضاء على الخلافة قبل أن يبرح مجلس الشورى . فكان لح الخلاف مع هذا ويعد هذا فلا حيلة فيه . .

(١) رواه المحقق وابن أبي الحديد مستنداً إلى ابن عباس

غالب عن المدينة ، أو ما كان في الخليفة المقيم بالمدينة غنى وكفاية؟ . . أو ما كان للخليفة بدليل من سائر الصحابة المقيمين؟ . . جواب ذلك عند التاريخ في نهاية عهد عثمان ، وعند التاريخ في بداية عهد علي ، وعند عمر قبل ذلك بالثنتي عشرة سنة .

ورأية الآيات دستوره في اختيار الستة دون سائر الصحابة من الاتصال والهاجرين . . .

أترأه اختارهم جزأنا كما شاء؟ . . ذلك دستور لا يلزم الناس جميعاً ولا حجة له عليهم فيه إذا سألوه عن فضل المختارين على غير المختارين؟ .

أترأه اختارهم من قبائل قريش ليكون كل منهم نائباً عن قبيل منها أو مكلماً باسم بيت من بيوتات الرئاسة فيها؟ . . تلك هي المصيبة يعيها في أسوأ أوان لإحياها ، حيث تراء الوحدة والغيرة على المقيدة ، ولا تراء المصيبات الجمالية أو لا يراء الاعتراف بها إذا تيقنت على غير إرادة .

أترأه اختارهم من الأندلسين وذوي السوابق في الجهاد؟ . . لقد كان من هؤلاء عند وفاة عمر نفر غير قليل . لو جمعهم كلهم لكثروا ولو فاضل بينهم لما وضحت لهم أسباب المنازلة ، ومنهم من هو ذو فضل وليس بذى رئاسة تتبع ، ومنهم من ذوى الفضل والرئاسة من لو اجتمعوا لاختل ميزان الترتيب وبطل معنى الاختيار .

فلا بد من اختيار ولا بد من دستور يثاب إليه في الاختيار ، وكان الدستور الذي تائب إليه عمر حيث يعجل المرء من الروية غاية في الروية والدقة في الموازنة بين جميع المرء .

كان دستورهم أن أصحاب الشورى هم الذين ذكروا بأسمائهم في خطبة النبي عليه السلام بعد حجة الوداع ، وهم الذين يتفق الناس على من يقع عليه الاختيار منهم فتكون له حججه على أصحاب الشورى وتكون لهم حججهم عليه .

وعمر يعلم أن طلحة كان يطمع إلى استخلافه بعد أبي بكر ، وكلاهما من عشيرة واحدة وهي قبيلة تيم ، فقال له أبو بكر : «أما والله لو وليتك جعلت إنك في ففلك» ، وولفت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يصفها» . .

وما كانت تخفى على عمر فضيلة في واحد من الستة ولا نقصه ، وما كان يطمح لهم فضلاً ولا ينقص على نقص ، وأولهم عبد الرحمن بن عوف الذي أقامه

طوعاً أو كرها لم يحسم بذلك خلافاً بين المسلمين عامة ولا بين أمية أو أبناء بيت أبي سفيان . . .

وما تحبب أن عمر كان يؤمن بتزجيح واحد من السنة على الآخرين زاحماً المسلمين على مثل رأيه فيه ، وأنه قادر على رد الخالفين له إلى الإجماع إن كان من الناس من يخالفه قبل المبايعة ، وليس البحث في هذا المقام عن فضل العلم أو فضل البأس والفروسية ، فربما قل الخلاف على صاحب الفضل فيهما بين أصحاب الشورى ورؤساء المهاجرين والأنصار كافة ، وإنما البحث فيمن يجمع الناس إلى حكمه وفضله ، وهو بحث لازم لا غنى عن المشاورة يومئذ فيه ، ولو استغنى عنه أحد لاستغنى عنه عمرو ولم يبال إن كان يحكم برأيه في ولاية العهد - غنى يقين . . .

ولا ريب أنه حصص المرشحين بعده للخلافة ، فأحسن حصصهم ولم يدع واحداً منهم خارجاً من زميرتهم ، فهم مرشحون لها عند أنفسهم وعند أنصارهم قبل أن يندبهم للمشاورة فيها ، فإن صارت إلى واحد منهم باتفاقهم كان هذا الزم لهم وأوجب لتخرجهم من الخروج على من ولي الأمر باختيارهم ، وكان أوجب لتخرجهم كذلك من الخروج على مشيئة عمر التي أملاها ورتب لها نتائجها .

كان ولي الأمر في ذلك المجتمع الوليد كنواً لأمانة الخلافة إلى النفس الأخير من أنفاس حياته المباركة ، فأوصى وصيته الحكمة التي نظر فيها نظره الشاملة ولم يدع فيها بقية لنظرة ثانية ، ولكن الوصايا مهما يبلغ من إحكامها والزامها لا تنفذ بغير منفذين يقدرون على تنفيذها ويصدقون النية فيه ، فلو لم يكن أصحاب الشورى وقائد الجند وأمام الصلاة في الأيام الثلاثة أهلاً لأمانتهم لما أغناهم حزم الخليفة الراجل شيئاً في تلك المهمة المعجزة التي يوشك أن يسدها كل حنأ في القيام عليه وكل تأخير عن موعدها ، وقد أدى الخليفة واجبه ونفى واجب المنفذين الذين اتسمتهم على الأمة بعد حياته ، فمن حقهم على التاريخ أن يسجل لهم أداؤهم لواجبهم وتصريفهم لأمانتهم على أتم الوجوه المبصرة لهم في تلك المهمة الحرجة . . . وفي زميرتهم قبل غيرها بعض محرجاتها ، بل أعقل محرجاتها . .

تأفستوا بينهم ولا جرم . أقل من منصب الخلافة في الدنيا والدين يتنافس عليه المتنافسون ، ومن المروءة أن يستشرف المراء إلى مقام الفاضل ويأبى لدينه ودنياه مقام

وقد روى الثقات حديث النبي عليه السلام حين عاد من حجة الوداع فيل وقاه فقال : «أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤني قط فأعزفوا له ذلك ، بأيها الناس أنى راض عن عمر وعلى وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين ، فأعزفوا لهم ذلك» . .

فحسب عمر أن يرتضى للمشاورة في أمر الخلافة من رضى النبي عليه السلام عنهم قبيل وفاته ، وحسبه مع هذا أن يكون هؤلاء النفر للكرام الرضى عنهم هم ملقى الآراء بين خاصة المسلمين وعامةهم ، فلا يسمون خليفة إلا كان واحداً من هؤلاء ، ولا يحاول أحد في ذلك المعصرو أو في عصرنا هذا أن يزيد عليهم علماً من أعلام الإسلام يومئذ إلا اعترضه مانع أو كان مستنده إلى سبب غير جامع ، فقد كان العباس بن عبد المطلب حياً في ذلك الحين فلم يدخل في أصحاب الشورى ، وقال ابن جرير الطبري في تعليل ذلك : «أنه - أي عمر - إنما جعلها في أهل السبق من البربريين والعباس لم يكن مهاجراً ولا سابقاً ولا بدرياً» . . .

ولكن الواقع أن العباس لم يذكر في خطبة الوداع ولم يكن من المرشحين للخلافة مع وجود على ، وهو نفسه قد تقدم لجباية على ثم أشار عليه ألا يدخل في جماعة الشورى ، فليس في استثنائه تصلف من عمر ، وإنما التعمص أن يختاره لسبب ولا يختار معه كل من يشاركه في هذا السبب ، وذلك هو الاستثناء الذي لا يغنى شيئاً ولا يطلع بسند شامل براء من التحكم والجزاف .

ولعلنا علمنا فيما علمناه والمنا به أنفاً من آراء المعقنين على خطبة الصديق وخطبة الفاروق ، أن بعضهم ود لو كان الفاروق قد نهج على منهج سلفه في اختيار خلفه ، وأنهم عابوا عليه أن يكل إلى السنة أن يشاوروا في انتخاب واحد منهم ، لأنهم تولوا هذه المهمة فداخل كلا منهم الأمل في الخلافة والإيمان بصلاحه لولايتها ، فانفتح بينهم باب التنافس وتطرفت إليهم نزاع الشقاق في هذا الباب .

ومعاصرة بن أبي سفيان كان على رأس القائلين بهذا الرأي وهو نفسه حجة على نقبضه ، لأنه قد أشرأب إلى الخلافة وتصدى للمبايعة بها وليس هو من السنة ولا من كان يطلع في استنادها إليه بوصية من الفاروق لو اختار الفاروق أن يعهد بعده لخليفة يسميه باسمه ، وقد نادى معاوية بولاية العهد لابنه يزيد وبوع عليهما

إلى العظيمة النابتة جنوحهم إلى الطيبة والسلامة ، ولا يتفكرون على الشيخ ما يفسدونه على الغنيان والكهول .

كل أولئك وأبو طلحة الأصمري رئيس الجند ينذرهم ويقسم لهم وبالله الذي ذهبي بنفس عمره لا يزيدتهم على الأيام الثلاثة ، ثم يجلس في بيته فينظر ماذا يصنعون ، وينفذ الأمر فيمن خالف وأصر على الخلاف .

ولئن كان عمر موقفا في اختيار كل لعمله لقد كان اختياره لأبي طلحة أوفق ما في هذا التوفيق . إنه الرجل الذي أنشئ النبي عليه السلام بيته وبن أبى عبيدة بن الجراح أولى الناس في رأي عمر بالخلافة لو عاش ، وهو البطل الذي ثبت في وقعة أحد يوم انهزم أشجع المشجعان ، ولزم النبي في ذلك اليوم المشهود يقف بيته وبن السهام والسيوف ويتناول بصله ليدفع عنه ضربات المشركين الذين عرفوه وتعمدوه ليعصروا المدعوة في مقتلها إذا أصابوه ، وشهد أبو طلحة وقعة حنين فبازر عشيرته خصما وصرعهم وصاح صيحته التي كان عليه السلام يقول : «إنها في الجيش خير من مائة رجل» . . ولم يكن يبالي بالرت وهو في سعة من دنياه ، ولم يكن يعرف غير الجد فيما يعمل أو يقول .

وقد أوفق بأمانته في أيام الشورى فلم يدهمهم حتى فزعوا من عملهم في صيحة اليوم الثالث ، وكان فيه فصل انقطاعي . .

في تلك الليلة أتى عبد الرحمن بن عوف منزل المسور بن مخرمة فأيقظه وأرسله يدعو الزبير وسعدا ، ثم بدأ بالزبير فقال له : «دخل بني عبد مناف وهذا الأمر قال الزبير : «نصيتي لملي» ثم قال لسعد : «اجعل نصيبك لي فتحن كلاهما أي أبياء عم من بعيد - وكلاهما من بني زهرة . فقال سعد : «إن اخترت نفسك فنعيم» وإن اخترت عثمان فعلي أحب إلي» ثم قال : «أبها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وأرفع رؤوسنا» فاعتذر عبد الرحمن لأنه خلع نفسه منها ، وأعاد عليه مقالته : أنه لا يقوم مقام أبي بكر وعمر أحد بعدهما ويرضى الناس عنه . . .

ثم كان علي وعثمان آخر من دعاهم في تلك الليلة : دعا عليا فاجابه طويلا ، ثم دعا عثمان فاجابه إلى صلاة الصبح ، وظهر أنه سأل كلا منهما عما يتوبه إذا ولي الخلافة ، وعن وصية عمر بعمل الولايات أن يتركوا في ولاياتهم عاما بعد وثانه ثم

المنقول ، فإن لم يكن تتنافسهم على مكانة عالية فهو تنافس يراون به عن مظنة التنازع والقصور .

ثم ألهم أحدهم أول حل للمشكل تتبعه لا محالة سائر الحلول : واحد يتزع نفسه منها باختياره وينوب عن سائرهم في التوفيق بين المختلفين .

سبقهم إلى هذا الحل عبد الرحمن بن عوف ، ولم يسبقهم إليه ترو لا يقدره عن أقدارهم ، بل ترولا به عن قدر الصديق والفارق ، فقد علم أن الرضى عن خليفة بعد هذين طمع بعيد ، ولم يشأ أن يتول بنفسه متولا لا يرضى له ولا يرضيه . .

ولم يخطر له أن يخلع نفسه بادئ ذي بدء قبل أن يرى منهم من عساه يصنع مثل صنيعه ، فإن كان منهم من يخلع نفسه على أن يختار غيره فقد ضاقت بينهم شقة الخلاف ، وإن لم يكن ، فليُنظر بعد ذلك فيما يلي خطوته الأولى من خطوات .

قال : «أيكم يخرج منها نفسه ويتقدمها على أن يوليها أنفلكم؟» فلم يجبه أحد فقال : «فأنا أنخلع منها» ، ثم تقدم إلى الخطوة التالية فلم يخطئها ووصل منها إلى حصر الخلاف في واحد من اثنين : علي وعثمان .

لحق كلا منهما فأراه أنه يعلم حجته ودعواه ، قال لملي : «نقول يا أبا الحسن أتى أخق من حضر بهما الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أترك في الدين ولم تبعد في نفسك ، ولكن أريت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحقر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أخق به؟» قال : «عثمان» .

ولحق عثمان فقال : «أراك تقول : شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله وابن عمته ولي سابقة وفصل فإين يصرف هذا الأمر عني؟ لكن لو لم تحقر ، فأى هؤلاء الرهط تراه أخق؟» فقال : «علي» .

وتختلف الروايات فيمن اختاره الزبير وسعد ، ولكن الراجح منها أنهما ذكرا عثمان بشرط ولم يقظما يراى في إيتار علي عليه . .

فلما انحصر الترتيب بين عثمان وعلي خرج يسأل من يلقاه من غير أصحاب الشورى فيذكر له بعضهم عثمان وبعضهم عليا ، ويزيد المختارون لعثمان على المختارين لعلي وهو أمر لا غرابة فيه مع المهود من طبائع الناس وأنهم لا يجتنبون

أيقن الحاضرون بما رأوه وما سمعوه أن الفتنة موشكة أن تكسر عن نابها إن لم ينته الناس من مياينة خيلتهم تلك الساعة!... هذا يذكر اتفاق قريش ، وهذا يشترط ، وهذا يقابل شرطه مثله ، وهذا يتكلم عن بني هاشم ، وهذا يتكلم عن بني أمية . فلما صاح سعد صيحته بعبد الرحمن انزعج عبد الرحمن قبل أن يفطن الناس كان صوته في تلك اللحظة كأنما هو صوت المسجد كله يتكلم بلسان واحد .

وأسرع عبد الرحمن فقال : «إني قد نظرت وشاررت فلا تجملن أيها الرهط على أنفسكم سيلا» ودعا عليا وقال : «عليك عهد الله وميثاقه لئعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفين من بعده» . فقال : «أرجو أن أفعل وأعمل مبلغ علمي مع اجتهاد رأيي» ودعا عثمان فقال له كذلك : «عليك عهد الله وميثاقه لئعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفين من بعده» . فقال : «نعم» .

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد وبده في يد عثمان فقال : «والله اسمع واشهد... أني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رغبة عثمان» ثم بايعه بالخلافة ، وبايعه بعد المهاجرون والأنصار .

وجاء في بعض أخبار ذلك اليوم أن عبد الرحمن بن عوف لما بايعه ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه عند المنبر ففقد عبد الرحمن مقعد النبي صلوات الله عليه وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه ، وأبطأ على فقال عبد الرحمن : ﴿لَمَنْ كُنْتُ فَأَنْتُمْ يَكُنْتُ عَلَى نَفْسِي وَمَنْ أَوْقَى بِيَا عَاهِدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَتَسْوِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فرجع على يشق الناس حتى بايع وهو يقول : ﴿فَصَبِرْ جَمِيلَ وَاللَّهِ الْمُتَمَتِّانَ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾

وقد بايع رهط الشورى عثمان في المسجد ما عدا طلحة فإنه كان غائبا فقدم بعد ذلك وعلم بالبيعة نسأل : «أكل قريش راض به؟» ثم قال له عثمان حين ذهب إليه : «أنت على رأس أمرك... إن أبيت رددتها» قال طلحة : «أتردها؟» قال : «نعم»... فسأله : «أكل الناس يابسون؟» قال : «نعم» قال : «قد رضيت ، لا أريد عما قد اجتمعوا عليه» ..

ولا نلغث هنا إلى زوائد الأقاويل عما خدع عليا وعمرن خدعه . فإن ما أجلسناه هنا من شتى الروايات هو الأشبه والأمثل بهم أجمعين .

يصنع الخليقة ما بدا له من إقرار أو عزل على حسب أحوالهم وأحوال ولايتهم ، وأنه سأل كلا منهما عن سياسته عامة وخاصة في شئون الأغنياء والأزاق والأجناد والسرارياء والغاري وسائر ما يتولاها من أمور الخلافة ، ولا يفتقع أحد بما دار بين عبد الرحمن وبين كل من علي وعثمان على حدة ، وأظن لظن أن الدين ذكروا شيئا من هذا إنما ذكروه مستبطين ولم يذكره نقلا عن عبد الرحمن أو عن علي وعثمان... قال عبد الله بن عمر : من أخبرك أنه يعلم ما كلم به عبد الرحمن بن عوف عليا وعثمان فقد قال بغير علم .

وحانت صلاة الصبح فصاروا في المسجد ، وجمع عبد الرحمن رهط الشورى وبعث إلى من كان بالمدينة من أهل السابقة والفضل من الأنصار وأسراء الأجناد فاجتمعوا حتى لئج المسجد بأهله ، وقام عبد الرحمن فقال : «أيها الناس!.. إن أهل الأمصار قد أخبروا أن يلحقوا بأمصارهم وقد علموا من أميرهم» . فصاح به سعيد بن زيد أحد قوى السابقة الأولى في الجهاد : «إنا نراك أهلا لها» . قال عبد الرحمن : «أشيروا علي بغير هذه» . قال عمار بن ياسر . «إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا» وقال القناد بن الأسود : «صدق عمار» . إن بايعت عليا . قلنا : سمعنا وأطعناه . وإذا بعبد الله بن أبي سرح يناديه : «تبايع عثمان فلا تختلف قريش» . ويش عبد الله بن أبي ربيعة فيقول : «صدق... إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعناه فتنايز عمار وابن أبي سرح ، واختلط القول بين بني هاشم وبني أمية ، فعاد عمار يقول : «أيها الناس!.. إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟» وبانده رجل من آل مخزوم شامخا : «لقد عدوت طورك يا ابن سمية؟... وما أنت وقامير قريش لا نفسها؟» .

وضاق سعد بن أبي وقاص صدرا بهله المنازة وهذا الصخب فصاح بعبد الرحمن : «بايعد الرحمن انزع قبل أن يفطن الناس» .

ولا ندرى هل تعلم عبد الرحمن هذا الصهيل قبل إعلان البيعة أو أنه سكت حين اعترضه المعتضون بالحجاج والمنازة . فالتألب من تصرفه في أمر الشورى أنه كان يخطو الخطوة ثم يتبعها ما بعدها بحساب وأناة ، وآخر ما كان من ذلك أنه أرجأ محادثة الاثنين اللذين انحصورت فيهما الأقوال حتى كانا آخر من تحدث إليه ، وأنه لما دعاها دعا عليا ثم ثنى بعثمان ..

فإن كان قد تمهل في المسجد على عمد فقد أحسن الروية ، لأنه سكت حتى

ثم خطب فاتفقت الأقوال أو كادت على نصوص خطبه الأولى ، وكان مدارها على فترة الدنيا والوعد بالجنة واجتناب السخط وتهدئة النفوس من قبل ما تخافه ، ولا تخاف خطراً أكبر من خطره . . .

قال في خطبته الأولى : «أيكم في دار قلعة ، وفي بقية أعمار ، فبادروا أجالكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد أنيتم ، صبحتم أو مسيتم ، ألا وإن الدنيا طوبت على الغرور ، فلا تفرنكم الحياة للدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور . اعتبروا عني مضي ، ثم جدوا ولا تشغلوا فبايه لا يغفل عنكم . أين أبناء الدنيا وأخوانها الذين آثاروا وعصروها وامتروا بها طويلاً . ألم تألفظهم ؟ أروا بالدنيا حيث رعى الله بها . . .»

وقال في أوائل خطبة : «أي قد حملت وقد قبلت ، ألا وإنني متبع ولست بمتبع . ألا وإن لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً : اتباع من كان قبلي فيما اجتماعتم عليه وستتم ، وسنة أهل الخير فيما لم تسروا عن ملا ، ولكف عنكم إلا فيما استوجبتم . ألا وإن الدنيا خصرة قد شئت إلى الناس ومال إليها كثير منهم ، فلا تركوا إلى الدنيا ولا تتقروا بها فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها . . .»

إن اقرب الأخبار إلى المصدق ما نهم بأن تنفيه فيحصى صدقه بأية من دوايه قبل النفس وقبل الواقع ، وكل ما كان خليفاً أن يحدث عند مبايعة الخليفة الثالث قد حدث على وجهه الذي يطابق الواقع والتوقع ، وفي هذه الخطبة مطابقة لما يتطلبه الوقف من المحدثات والمعهود ، وفيها زيادة وعد بالكف عن الناس إلا فيما استوجبوه ولعلها الزيادة التي أتت في أوانها بعد ما تأمل منها القوم من صلاة عمر ومنعه إياهم أن يتساحروا في الدنيا خوفاً عليهم منها وخوفاً منهم عليها . . .

أما المكائد التي أيدعتها أروام التورمين فقد يطلها قبل كل شيء ، أنها ليست بكائد تعمل عملاً ينفع من يكيدها .

ومن هذه المكائد ما يخيّل إيتا أن مختبريها وضعوا حين وضعوا أنفسهم مسرّحين ، يعلمون كل بطل من أبطالها دوره في الكلام ودوره في الدخول والانصراف ، ومنها ما يخيّل إيتا أن أصحاب الثوري كانوا عصية محضرة مستعدة على مصارحة بيتها لحرمات هذا واجتبابه ذلك ، وأحدى هذه الخيالات خيالة

إن تقرير هذه الحالة النفسية أهم من إحصاء مشات الحوادث والأقوال التي انحدرت إيتا من تلك الفترة ، لأن الحوادث والأقوال لا تفهم بغير فهم تلك الحالة النفسية ، ولعل تلك الحالة في كثير من الأحيان هي سميت الحوادث وأقوال القائلين فيها ، فما كان أحد يعيب سياسة عثمان مخلصاً أو غير مخلص إلا كان الخطر من تبديل السنن ونقض السوابق حجة له بسوقها في خطابه للخليفة أو خطابه للخاصة والعامة من رعيته ، وأصبح حضور ملا الخطر في الأذهان من دواعي البلاهة في تعظيم المخالفات وخلقها من غير شئ على نية حسنة عند بعضهم وعلى نية سيئة عند الأكثرين ، لأنها نفثة المعصر التي تفتح الأذان ، وتغيب الأذان لاستماعها في كل مكان . .

وأهم من ذلك أن عثمان على رأس المسلمين قد ساروه ذلك الشعور وداخلته تلك الحالة النفسية وجتمت في سريته حتى تمكن منه التسليم والاستسلام لا هو كائن لا محالة ، فكان يقول لعديبه كما يقول في خطبه : «إن ما تبلى به هذه الأمة قدر واقع لا يدفع ، وإن فترة الدنيا طفت على النفوس طغيانها الذي لا يجدي فيه الحيلة أو الحاركة . وذلك كله بما نلّمسه في استسلامه آخر أيامه وتركه الحاركة أو عدوله عنها بعد النص فيها ، ونلّمسه كذلك في شكه واسترايته في صدق السامعين وتوبله من أجل ذلك على أقرانه وخاصة ذرية عسى أن يصدقوا في رعاية السنن والمواثق . .

وتظهر تلك الحالة النفسية من خطبه الأولى كما تظهر من خطبه الأخيرة ، فلما بايعه أصحاب الثوري خرج فيهم وهو أشدهم كآبة حتى أتى منبر رسول الله ﷺ يعطبل للناس فارح عليه ، رجاء في كلام من روى خبر الارتحاج عليه أنه قال يومئذ : «أيها الناس . . . إن أول بركب صعب ، وإن بعد اليوم أياما ، وإن أعش تأكمم الخليفة على رجوها ، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله . . .»

مقام أدل من المقال ، يدل على كثير . . .

وأول ما يدل عليه أنه لا تدبير فنة ولا تخفيع ، فلو كان عثمان على علم باختياره للخلافة لا أعياه أن يعد لها المقام كفايته من المقال البليغ ، ولكنها قد جات ، وهو لا يستعيد أن تغوته ولا يزال يخشى في ذات نفسه أمام الله أن يتعجلها بالتحضير والتدبير ، وأن يطوى في سره منها ما لم يكن له أن يبديه في العلانية . .

الإخلافة

بين هذه النكبات قامت أصعب خلافة نوالها خليفة قط في صدر الإسلام ، وقد كانت ثورة المرتدين في أول خلافة الصديق محنة شديدة نهض لها المسلمون جميعاً متساندين متآزرين ، فابطل عثمان في أول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه : الخلاف في الداخل والتغير في الدواعي للنفسية ، وهو أغفل المساعبة جميعاً في خلافة عثمان ..

كانت هيبة عمر قنلاً الجزيرة العربية وما حولها ، وكان أصحاب الدوائين الكبيرتين من الروم والفرس أعجب له من رعيته في الجزيرة ، لأن هذه الرعية تضمهم من هيبته يحق يعرف لها وتعرف لنفسها ، ولم تكن للروم والفرس عصمة من هيبته إلا بالعجز والدمية ، ورسم بطل الفرس الشهور الذي كاد أن يصبح من أبطال الأساطير هو القاتل عن عمر : «أحرق كبدى عمر أنه يكلم الكلاب فتطعمهم عنه» ، يعنى أنه جعل من عرب البادية للذين أزداهم الفرس أبطالاً كالأسود بفضله ما يسدى إليهم ويستمنون إليه من نصيحته والاقتداء بهيرته . وقد خطر للمؤرخين في صدر الإسلام أن الهرمزان كان من الشائرين مع أبي لؤلؤة على قتل عمر ، وهو خاطر قريب إلى الأمن ولو لم يعتمد فيه المؤرخون على غير القرائن التي شهد بها يومئذ شهود الجامعة قبل وقوعها ، ولكننا نحسب أن المؤامرة أكبر جدّاً من ظواهرها التي تحصرها في أبي لؤلؤة والهرمزان ، وأن تدبيرها في معسكرات فارس وبلاط يزجود وحشيتها أقرب إلى الخاطر وأدنى إلى المغرور في مجمل الأحوال ..

فما هو إلا أن داغ في مساحات الشرق والغرب مقتل عمر حتى تلاحقت الثورات والفتن كأنما كانت على موعده ، ورد من قتال الفرس والترك والروم من كان قد أذن وتعاقد مع قادة الحرب على السلاح والمطاعة ، وتقفست دولة الروم صلحها فاعارت على الإسكندرية برا وبحرا وأسلت أساطيلها إلى شواطئ فلسطين ، وأطاعت في البيادين خلية من بيت فيها الوعد والوعيد وغيرى المطيع بالمعصية ، وأحصى المؤرخون البيزنطيون عدة السفن والجيش التي اشتركت في حركات الثورة والانتفاض فقال بعضهم إنها جاززت خمسمائة سفينة ومائة ألف مقاتل ، وسرعان ما تسابرت الأنياب بهذه الزخوف بين الخزر والأرمين ومن وراءهم من الشعوب

المشتريين الذين توهموا أن أصحاب الثغرى خصروا عثمان باختيارهم لأنه شيخ يلف إلى منيته فكلهم يلوح فيها بعد موته ، أفلحت حقاً أنهم خصروه وعزفوا يقينا قبل أن يبايعه عبد الرحمن من سيكون مختاره ومجيباه؟

وفي مكيدة أخرى من هذه المكائد التي «تسرحها» المؤرخون لها أن اختيار عثمان قرر الملك لبنى أمية على نية مبيتة ، فهل هي مسرحية يكتبها التاريخ نسخة بعد نسخة ، ويريد هنا غير ما يريد هناك؟

ولماذا تطمح القبائل أن تتداول الخلافة بعد خليفة من بني أمية وهم أقدر على احتجائها وأزغب في الاستئثار بها بعد ملكها إليهم في صدر الإسلام؟

كل هاتيك حيل مسرحية توضع لها أدوارها وأعمالها حسب مهاجج التأليف . وأولاً ما بالشك فيها ما لاح عليه الأحكام والتوفيق بين الأدوار والأعمال ، وأولاً ما بالقبول مالميس وراءه تحفير ينتظم كما ينتظم التحضير في المسرحيات : شىء يراود وشىء لا يراود وما يلح فيستطيعه تارة ويص به تارة فينقلب على غير ما تعدمه واتحاده ..

وعلى هذا النحو المطبوع آلت الخلافة إلى عثمان ..

سيرته أو أية من آيات عزته وتبليبه، وليكن للضعف محله فلا يشغل كل محل في معارض هذا التاريخ المعجبات ...

إن علاج عثمان لمشكلات الدولة الخارجية، التي فاجأته بعد ولايته قد كان أحسن علاج يتولاها خليفة في تلك الأزمنة : عزيم وسداد وسرعة ، مع الخطة والأناة والرفق في سياسة الأولياء والخصوم ...

ولا شك أن الخليفة كان معانا على عمله ، ولم يكن متفردا بعينه في تلك الحقبة الجانحة : كان معانا عليه بحمية الجند وكفاية القادة ، وكانت حمية الدين التي حفزت دعاء الإسلام من نصر إلى نصر ومن عزمة إلى عزمة ، وصحتهم من بدر إلى القادسية وتبرك وبالبزون ، صامدة على سميتها كأقوى وأقوم ما كانت في يوم من أيامها ، بل لعلها في حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقوم من حروبها في الجزيرة العربية . إذ كانت أئمة العرب أن يهزم أمام المتعجزين عليه من الأعاجم كقبيلة أن تنفت في قلبه الغضبية القوية التي لا تثيرها حرب العرب للعرب والشبيه بالشبيه ...

كان حبيب بن مسلمة الشهير ، يناضل الروم في ميادين دهمية أخرى من دهشاتها فاستعان بجدد من الجزيرة فوصل إليه ، واستعان يحدد من الكوفة فأبطأ عنه ، فلما أقيمت الروم قبل وصول المدد وهم لا يتوقعون القتال مع قلة الجند في معسكر العرب اتاهم حبيب من حيث لم يتوقعوا وبثبهم بليل . فانتصر وانهبوا ...

وإن الدهشة من هذه الجرأة لتغمرها حتى لتكاد تحورها دهمية أخرى من دهشاتها التي لا عداد لها في كل وقعة من وقعاتها : كانت أم عبد الله امرأة حبيب معه وهو يتولى الهجمة بليل قبل أن يسفر نور المسيح وبأني المدد المرتقب ، فسأله : أين الموضع؟ قال : سوادق «الوربان» أو الجنة فوجدما عند السوادق قد سبقته إليه ...

وقبل هذا أعين الصديق والمبارز بحمية الاجتاد وكفاية القواد ، ولكن أعياء الجهاد في أوائل أيام عثمان كانت أشق وأكبر وأخرج إلى الترجية الناجز والتصريف الذي لا يقنى الإجمال فيه عن التفصيل ، على حسب الأظوار المتجددة والظوارى الانتقالية ، لا امتداد خطوط القتال وتعدد الفتن وتبعد المسافات بين البلدان وتكاثرت المناصر والأجاس في جيوش المسلمين ، فقام الخليفة الشيخ بأعبائه الجسم على أحسن ما يقام بها في تلك الحقبة الجانحة ، وكان له ولا شك أكبر الفضل في تثبيت مهابة الدولة الجديدة بعد ما أصابها من الوهن والتدخل عند مقتل عمر ، وقوفه

الأسيرة ، فهربا يتعللون بالذرائع لنقض الصلح ، أو يتقصونه بغير فريضة ويتهبزون الفرصة التي علموا أنها لا تسنح مرة أخرى إذا استكثروا للمناعة المسألة ...

لقد كانت محنة كمحنة الردة أو أكبر منها في اتساع مبادئها وتبعد أطرافها ... وكان عثمان كفوا لها بالزوم والرأى والسرعة في تصريف الأمور وتسيير النجيدات وإسناد كل عمل إلى من يحسن ويسد فيه أحسن سداد ...

ولقد درج المعادون واللاثمون في تاريخ عثمان على التسليم بضعفه كأنه حالة لا تتأرق في جميع أعماله ، أو كأنه حالة لم تتأرق قط في عمل ما تولاها ...

فقالدين آمنوا منه بحسن القصد ، كانت معادتهم له بالضعف واللين أسبق معاذيرهم إلى التستهم حيث يوقعون بين خطئه وحسن قصده ، والذين أفرطوا في اللوم جعلوا من ذلك للضعف خطلا في الرأى قد يفتى على حسن التنية لو اقترضوه ورسلموه . ومولا يستتبرون أن يقال إنه كان كفوا لتلك الحقبة بعزيمته وأصاله ربه ، ويخيل إليهم أن كلمة «الضعف» تلغى كل قوة وتبطل كل عزيمه ، أو ينسبون أن الضعفاء لا يتسارون ، وأن الضعف لا يلازمهم في كل ما يعملون ، وأن الضعف كالارض تتفاوت فيه متاعه الأبدان وساعة النفوس ، فقد يمدى القوى الركين وإلى جانبه النحيل الهزيل لا تسرى إليه علواه ، وقد يكون القوى في حالات أضعف من الضعيف في حالات ، وهذا مع التسليم بضعف عثمان على العلوات ، وهو قول لا يقتل على إطلاقه ، إذ لا ترى من علاقات ضعفه إلا ما يظهر فيه الضعف بالنسبة إلى موقف من المواقف قد يحار فيه الأقوياء كما يعنى به الضعفاء ...

فلا تنس أن عثمان قد ولّى أعمالا ناجحة في الجماهية والإسلام ، وأن من هذه الأعمال قوافل ترحل في الصيف ولششاء ، وتوافق مطالب اليمن في الجنوب والشام في الشمال ، وأنه استطاع أن يصرف هذه القوافل ويوائم تلك المطالب وهو مقيم في مكة أو المدينة ، وأنه تعود أن يستأجر قيعا يحضره ويغيب عنه ، وأنه تعود كذلك أن يعرف مشورة غيره في مثل عمله ، وأن يعرف اختيار من تقدمه ومن عاصره من نزلاته ، وأنه بعد الإسلام قد لازم ولاية الأمر في السياسة والحرب من عهد النبي عليه السلام إلى عهد الفاروق ، وشاركهم في كثير ، ووسع أواصرهم وحضر مشاوراتهم في كثير ...

فلا تكون كلمة الضعف حاضرة في ذهن كلما حضرته حادثة من حوادث

فكتب إليه : «إني رأيت خطفًا كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والله . إن ركذ تخرق القلوب وإن تحرك أرايح المعقول ، يزداد فيه اليقين فلة والشك كثرة ، وهم فيه دروع على عود ، إن مال غرق وإن غاب برق .» إلى آخر ما مول به عليه ، فاقسم عمر لا يحملن عليه مسلماً أبداً ، ورضى من ملك الروم بترك القتال ، ثم زاد ملك الروم كتابته وقاريه وابلد الهدايا وأرسل مع البريد هدية من الملكة إلى السيدة أم كلثوم زوجة عمر تحتوي فيما احتوته عقداً فافخراً يقوم بأضياف هدية الطبيب التي أرسلتها إليها أم كلثوم . فباح المقعد وأدعه خزانة بيت المال ، وكتب إلى معاوية يحذره من القتال ويتذره أن يعيبه منه ما أصاب الملأء الخضرى إذا هو أقدم عليه بخير إذنه .

أما قصة الملأء هذه فقد كان لها أثرها الذى لم ينسه عمر ولم يزل عالفاً بدهنه بمعاودة كلما عاوده يذكر البحر وغزوانه ، وخلاصتها أن الملأء الخضرى وإلى البحرين كانت بينه وبين سعد بن أبى وقاص منافسة فى الجهاد ، فبرز اسم الملأء فى حروب الردة ، ثم غلبه سعد ففصلاً وهمة فى وقعة القادسية وأرايح الأكرسة عن الدار وأخذ حدود ما على السواد . . . قال ابن الأثير : «ولما أراد الملأء أن يصيح فى الفرس شيئاً . . . وقد كان عمر نهاره عن الغزو فى البحر فعمرت الجلود من البحر بنى إلى فارس ، فخرجوا إلى إصطخر وبنائهم أهل فارس ، وعليهم الهرب . فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم . . . واقتتلوا قتالاً شديداً فكان يبدى طارس . وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة ، ثم خرج المسلمون يريدون البصرة ولم يجدوا إلى الرجوع فى البحر سبيلاً ، وأخذت الفرس منهم طرفهم فمسكروا واستمتوا .» (١٠٠) .

قال ابن الأثير الذى تلخص منه قصة هذه الغزوة : «ولما بلغ عمر صنع الملأء أرسل إليه عتبة بن غزوان بأمره بإيقذ جند كفيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهاكروا . . . وأمر الملأء بإتلاف الأسياء عليه وهو تأثير سعد عليه ، فشنخص الملأء إلى سعد بن معه ولم يكن أشد على نفسه من هذا العقاب الأليم ، وما كان ليعطيه لولا إيمانه وتقواه وأنه استحقه بخالفته من لا يتجر من عقابه مخالف كائنًا من كان . . .»

إنخلاد الأم المحيطة بها أنهم يتأولون قوما لا يقدح فى قوتهم مورت خلية أو تبديل قائد ، وأنهم يستعمرون مستعبدون فى سبيل النصر على اختلاف القادة والرؤساء ، تقتل بعد هذه التجربة عثمان ، ثم قتل على ، ثم مات محاولة ثم مات يزيد وتغلى معاوية الثانى عن الملك وانقسم المسلمون على أنفسهم ولم تقم للثورة عليهم قائمة فى بلاد الروم أو بلاد الفرس إلا ما كان من شعب متفرق على غير وجهة ، يتردد الدول من داخلها ومن خارجها بلا انقطاع ولا يخاف منه على دعائنها وأركانها . .

ولم يقنع عثمان بتسكين الثورات حيث يكفى فيها التسكين أو قسمها حيث تحتاج إلى القمع فى بلاد الطغاة والتجبرين ، فصالح من صالح وحارب من حارب ثم أمر قواده بمجاورة البلاد التى تشيت فيها الثورات إلى ما وراءها متما لا يندد الهاربين إليها وأنيمات اللعن والمسانس من قبلها ، فتقدمت جنوده شتراً إلى حدود الهند والصين ، ونمالا إلى ما وراء بحر الخزر ، وغزوا إلى أبواب القسطنطينية وتخدم الأناطس ، وجنوا إلى السودان وجوانب الحبشة ، ولم يؤخذ عليه قط رداء فى إنقاذ نجدة أو تسير مدد أو تدارك خطر فى أوانه من أقصى تلك البقاع إلى انصماما .

وعرضت له مسألة عسيرة من المسائل التى استطاع للماورق إرجاءها ولم يكن ثمة يد من عودتها فى أوانها . .

عرضت له غزوة قبرص وروى وجزر بحر الروم ، وأعداد المدة لدفع الغارات البحرية عن شواطئ مصر والشام والقيروان ، فكانت بحق مسألة - بل مشكلة - من المشكلات التى لم تستحكم قبل أيامه ولم تغلب الحل السريع من رأى الأمر المسلمين فى الجزيرة العربية ، أو فى البقاع التى انتهت إليها الفتح . .

وكان من سياسة عمر ألا يجعل بينه وبين جيش من الجاهدين بحراً ولا جسراً ولا قطرة ، وإن يجتهدهم ركوب البحر ما استطاع ، وكان محاولة يلج عليه فى غزو الروم بحراً ويهون عليه خطب هذه الغزوات ولا يقنأ يقضه على ذلك ويقول فيما قتله حصاً عليه : «إن قرية من قرى حمص ليسمح أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم» يعنى جزيرة أرواد . .

فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يسأله أن يصف له البحر وراكبه ويقول له : «إن نفسى تنازعنى إليه» . . .

والشام تأميمًا للفرق من شرقها وغربها وجنوبها ، فأمروا البحر وأمنوه لمن يسلكونه من المسلمين والمسلمين ، ولو أنهم تركوا البحر وشأنه لاستعصى عليهم بعد ذلك أن يدفعوا غارة الروم من قبل البحر كما دفعوها ، وأن يسيطروا على سبل الملاحة خلال سنوات معدودات كما سيطروا عليها .

وكانت هذه المهمة من عثمان في علاج الأخطار الخارجية حلا ناقصا في شئون الدولة الداخلية إلى حين ، لأن مداومة الاخطار من الخارج شغلت الناس زما عن شواغل السلم والدعة التي تفرقهم وتفرغ أوقاتهم للشغاش والجدال فيما بينهم أو لا يهتمهم ، ولكن مواقع الجهاد اختلفت واختلفت عدد المجاهدين فيها ونصيب كل مجاهد من غنائمها وأنفالها ومن رواتبها وأعطيتها

وبما ذلك في عهد عمر ، كما تبدا مشكلات الميادين التي لا تستقر على قرار ، بين الكر والفر ، والإقامة والترحال ، ونعاقب البراء والقادة في ميادين القتال ، فما حدث في عهد عمر من ذلك أن أهل البصرة شكروا عجز خراجهم على كثرتهم وأن أناسا يشاركونهم فيه عن أقاموا معهم بعد عام الفتح ، فاختصم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وادعى أهل البصرة قوى اقتصحها أبو موسى دون أصبهان ، أيام أمد به عمر ابن الخطاب أهل الكوفة ، فقال لهم أهل الكوفة : أيتيمونا مددا وقد انتحنا البلاد ، فانبيناكم في المنام ، والدمه دمنا ، والأرض أرضنا . قال عمر : صدقوا . فقال أهل الأيام والقادسية عن سكن البصرة : فلنعملونا نصيبا ما نحن شركاؤكم فيه من سوادهم وحوائثهم . فاعطاهم عمر مائة دينار برضا أهل الكوفة ، أخذها من شهد الأيام والقادسية

وقد عزل عمر وأهل الكوفة عدو بن ياسر واستعمل عليها أبا موسى ، وكان أهل الكوفة يشكون عمارا ويقرؤون العمرة أنه لا يدري علام استعمله ، فسألهم : ومن تريدون ؟ . . . قالوا : يزيد أبا موسى ، فؤلاه عليهم ، فأقام عليهم سنة ، ثم باع غلامه النصف فشكوه فؤله وصرقه إلى البصرة . .

ولبت عمر مبهوما مغموما بأمر هذه الشكايات ، حتى اضطلع يوما بجانب المسجد وهو يفكر فيها واستيقظ وهو مكتوب بأدى الأسى ، فقال له البغيرة بن شعبة : ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين إلا من عظيم ، فقال : رأى شيء أعظم من مائة ألف لا يعرفون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير ؟ . . . وأراه أصحابه وهو بتلك الحال من الغم والأسى فسألوه : ما شأنك ؟ . . فقال : إن أهل الكوفة قد عصوني .

وبقيت حيرة هذه الفزوة لا تنسى ولا تغيب عن فكر عثمان بعد عمر ، وأوشكت مصائبها جميعا أن تنزى إلى البحر وإلى كل ماء من بحار فارس والروم ، ثم عادت المسألة - أو المشكلة - إلى عثمان فوجب أن يفصل فيها برأيه وهو على ذكر من سياسة عمر وسياسة أبي بكر من قبله : لا يحملن أحدا من المسلمين على ركوب البحر ، أو على ركوب الفر - في قتال

ونظرة عثمان في هذه المشكلة من أول أعماله على نصيبه من الاجتهاد ومن الاقتداء ، ومن أول الأمور على إقدامه حيث يحجم من هم أشهر منه بالإقدام . . . إن المشكلة هنا قد تغيرت ولم يبق بينها وبين مجازاة العملاء الخفصرى غير شبه قليل . . .

تغير من ركوب البحر أنه أصبح اليوم ضرورة لا محيد عنها ، بعد إذ كان مجازاة لا حاجة إليها .

فقد أصبحت قبرص ورووس وجزر الشاطئ القريب ملتقى تبرص فيه الأساطيل المتجمعة من أنظار دولة الروم ، وأصبح امتناع السفن المغيرة بها خطرا على الشام وفلسطين ومصر والقيروان ، لا يؤمن على غزة ، ولا على استعداد وأبهة ، ثم كان ما كان من اختيار المسلمين ، وركوب البحار اضطارا وكثرتهم للسفن كبارها وصغارها ، فقللوا الركب المعصى الذى طالما تجنبوه ، وتغيرت المشكلة ولم يبق بينها وبين مجازاة البحرين غير شبه قليل . . .

وعلى هذا الشبه القليل بين الأسى واليوم لم تول مشكلة التغرير بالناس قائمة لا تدفع إذا تخيف القمرد ووقع الخطر وقيل إن ولاية الأمر لم يحذروا ما كان حذرهم منه وأوجب الجذر منه على أتباعه وتابعيه .

وعسير أن يمنع غزو البحر ، وعسير مثله أن يباح ، فخرج عثمان من المسييرين خير مخرج ، وكتب إلى معاذ بن له ويشترط عليه ألا ينتخب الناس ولا يقترح بينهم ، وأن يخبرهم فمن اختار الغزو طائفا حمله وأمانه

وعلى هذا الشوط غزا عبد الله بن قيس الجاسى قائد الأسطول خمسين غزاة وبين شاذية وصاندة في البر والبحر ولم يفرق أحد ولم يتككب وانفقوا مع أهل الجزر على شروط تخميتهم الغيرة وتبيحتهم أن يتزلوا بها يستقروا تزول العدو بأرضها واحتماء الأساطيل المغيرة برافئها ، ورتبوا الحملة عليها من مصر

فإن تضرروا مسلمان فغريب حبيبكم فإن ترحلوا نحو ابن عثمان فاحملوا^(١) وإن تقسطوا فالتشفر فشر أسيرنا وهذا أسير في الكتائب مستقبل ونحن لالة الشفر كنا حماته لبالى نرمى كل تفسر وتكمل ولكن القاتدين كانا أحكم وأكرم من أن نقتد عليهما هذه المناقصة عملا حاضرا بين أيديهما ، فافترقا على أن يوزل حبيب في غرب أرميتية وأن يوزل سلمان في شرقها ، وأن يتلاقيا إلى الشمال بعد فتح المراجع بينهما ، فلدان لهما ما بين البحر الأسود وبحر الخزر ، وصروفا بأسهما إلى المدرفضا بقوة الجيشين أن تتغرق في المناقصة على الإدارة والسبعة ، ولكنها مناقصة كانت تستخدم في أيام السلم وبين سكان المدن فلا تنتهى بغير خصومة ولا تنتهى الخصومة فيها بغير شر وعناد .

ومن مقابلة النقيض بالنقيض أن تستلورد من قصبة حبيب وسلمان إلى قصبة الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص اللذين تعاقبا على ولاية الكوفة في عهد عثمان ، وقد أجمع الزورخون على فداحة الخطر الذى نجم من هذه القصبة على إمارة عثمان بين أهل الكوفة ثم بين سائر الأصم .

كان وليد بن عقبة وإلى الكوفة ثم اتهم بشرب الخمر ، فعزله عثمان وأمر بأشخاصه إليه وأسند الولاية بعده إلى سعيد بن العاص ، فغضب نفر من بنى أمية على سعيد لأنه غسل منبر المسجد قبل أن يخطب عليه ، وعدوا ذلك تشهيرا بالوالى المخزول ، وترصموا به الدوائر يكيدون له بين رعيته ويثرون به من يلفظ في محله .

ونحن نقشيس من جملة الزورخين ، كالطبرى وابن الأثير وغيرهما ، زبدة هذه القصة التى كان لها كل ذلك الخطر من بدء الفتنة إلى مقتل عثمان . .

وزبدة هذه القصة من مراجعتها للتراث أن سعيدا اختار وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل الكوفة ، فكان هؤلاء دخلته فاجتلا وأما إذا خرج فككل الناس يدخل عليه . .

(١) الشعر فى تاريخ الطبرى (ط . المعارف) ٤/ ٣٠٧ وابن الأثير ٥/ ٢٠٥ وفيهما : « إنك ترحلوا نحو ابن عثمان ترحل » .

واستشارهم فيمن يولىه ، فأشاروا عليه بتولية المنيرة ، فولاه وأقام واليا عليها أكثر من سنتين إلى مقتل عمر ، وكان من رأى المنيرة اللذى استمتع إليه عمر أن الوالى التوى السعد أصليح من الضميف التقى ، أما الضميف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضمفه عليك وعلى المسلمين ، وأما التوى السعد فإن سعادته وفوته لك وللمسلمين .

ولم يتحسم هذا الخلاف في عهد عمر ولا في عهد عثمان ولا في عهد على إلى أيام الدولة الأموية ، فكان مساوية بأخط جند قسرين بن يعقوب من فترج العراق وأخريجان والوصل والباب ، وهكذا كان يحدث في المباديين عامة بين من نظفروا فيها ثم تحولو عنها إلى غيرها ، وبين من أقاموا فيها ولم يتهدروا فتوحا ، ولا ظلم ولا عين في التقسيم والتقدير ، وإنما هي جزائر السمة واشتياك النظم والولايات وكثرة الامداد التى تنتقل من ميدان إلى ميدان ومن ولاية إلى ولاية ، ولنا أن نقول إنها جزائر الاختلاف من نظام الخلافة إلى نظام الملك ، والدولة التى تواجها كل يوم قضية من قضايا المعينة مقرونة بقضايا الجهاد ، أو قضية بين حالة عاجلة وحالة باقية على مدى الأيام ، ولا يفصل فيها نظام المعينة ، ونظام الجهاد كل الانفصال .

وليس بالناظر بين هذه القلائل أن يخف الجيش لجدة جيش آخر فلا يصل إلى المكان المعصور أو المهدد إلا بعد الاستثناء عن تجذته ، وليس بالناظر أن تتناقص الجيوش بالقادة والسبعة والسابقة فينقى بعضها على بعض أن يتحاز لقيادته وأن يكون أميره تأيما لا يمر آخر لم يعرفه قبل ذلك . . .

وما اتفق من ذلك أيام عثمان أن حبيب بن مسلمة الذى سبقت الإشارة إليه كتب إلى عثمان يسأله المدد فكتب عثمان إلى معاوية فى الشام يأمره أن يشتخص إليه من أهل الشام والجزيرة قوما عن يورغب فى الجهاد ، وكتب إلى سعيد بن العاص فى الكوفة يأمره بأن يعد جيشا بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلى ، فسار سلمان فى ستة آلاف من أهل الكوفة ولم يصل إلى حبيب إلا بعد فراغ حبيب من حملته الظافرة على الموريات .

ولقد كان كلاهما - حبيب وسلمان - من أشجع القواد وأخبرهم بثورن القتال ، وكان كل منهما غزاة معروف السابقة فى ساحات الجزيرة والشام ، فلما أراد سلمان أن يلى إمارة الجيشين أبى عليه حبيب ذلك ، ودخل جند المائدين فى المناقصة وقال أهل الشام لتضربن سلمان إن أبى إلا الرئاسة علينا . فأجابهم أوس ابن معزاه من جند سلمان بشعر يقول فيه :

إلى معارية : فإن تقرا قد تخلقوا للجنة فأنتم عليهم وأنهم فيأن أنست منهم رشدنا فأنبلهم وإن أعيرك فأردهم على^١.

فلما قدموا على معارية أنزلهم كنيسة مرم وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق . وكان يتعلو ويتمشى معهم ويحادثهم ويستخبرهم عن شكاوتهم عسى أن يقتنعهم فقال لهم في بعض هذه الأحاديث : يا بني أنكم تقدمتم قریشاً ، ولو لم تكن قریش كنتم أئمة . إن أنتمكم لكم جنة فلا تتعزفوا عن جنتكم ، وإن أنتمكم يصيرون لكم على الجور ويحتسبون منكم الموزنة . والله لستهن أو لبياتكنم الله عن يسومكم السوء ولا يحدكم على العسر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جرورتم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم .

قال رجل منهم - وهو مصمم - : أما ما ذكرت من قریش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أنتمها في الجاهلية فتخوفنا ، وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترت خلصت إليها .

قال لمعصمة : عرفتمكم الآن ، وعلست أن الذي أغراكم على هذه قلة المقول . ثم قال لمعصمة : أنت خطيبهم ولا أرى لك عقلا . أعظم عليك أمر الإسلام وأذكرك به وتذكرني الجاهلية ..

وطالت المناجحة بينه وبينهم فجميع رأيه على إخراجهم بعد الكتابة إلى الخليفة ، وكتب إليه بعضهم ويقول عنهم :

و . . . قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ، أصبحهم العدل لا يريدون الله بشئ ، ولا يتكلمون بحجة ، إذا همهم فتنة وأموال أهل اللمة ، والله مبطلهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخبرهم ، وليسوا بالذين يكونون أحدا إلا مع غيرهم ، فإنه^(١) سعيدا ومن عنده عنهم ، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب وتكبر .

وخرجوا قبل أن يخرجهم معاوية من الشام فقصداوا إلى الجزيرة ولم يعودوا إلى الكوفة انتقاء الشماعة بهم ، وسمع بهم وإلى حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فاستدعاهم منذرا متوعدا وقال لهم :

- ياالة الشيطان . لا مرجيا بكم ولا أهلا . . . خسرو الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم . يا معشر من لا أدرى أعرب هم أم عجم لا تتولوا لي ما يلني أنكم قائم

(١) انه فعل الأمر من نفس بنفس فيها .

وسأل عن أهل الكوفة فاطلموه على حالهم فكتب إلى عثمان يا انتهى إليه كما أمره وقال له فيما قال : فإن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم ، والغلب على تلك البلد روافد ردت ، وأعراب طغت ، حتى ما ينظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا غابتها^١ . . .

فأناء الجواب من عثمان أن يقبل أهل السابقة والقدمة من فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها يسبهم تبعاً لهم ، إلا أن يكون أهل السابقة قد تناقروا عن الحق وتركوا القيام به وكام به مؤلأه ، وليحفظ لكل منزله ويعطهم جميعاً بقسطهم على سنة العدل والمروفة بأقدار الناس . . .

وأرسل سعيد إلى وجوه القوم فقال لهم : أنتم وجوه من وراءكم ، والوجه بيني عن الجسد ، فألبسونا حاجة ذي الحاجة وخله ذي الخلعة ، ثم أدخل معهم من يحتل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والتسمتين في سمرو ، فاقطع الذين لا سابقة لهم ولا ندمة بعضهم إلى بعض ، وجعلوا يقومون فيه وفي عثمان ، وكلما طق بهم لاحق من ناشئ أو أعراي أو مولى طلق أعجبه كلامهم حتى غلب الشر وفشت القتالة ، فكتب سعيد بذلك كله إلى عثمان على ما تعود الولاة من الإبلاغ كل كبيرة أو صغيرة إلى الخليفة منذ أيام الصديق ، فنادى منادى الخليفة إلى صلاة جامعة وضطهم ولا عليهم ما جاءه من سعيد وذكر لهم أنه يريد أن يبعث إلى العراق بن شاء النقلة إليه من أهل السابقة ، ويأذن له في أن يبيع ما يملك بالعجاز عسى أن يستعين بهم سعيد على نصيحة الشافعين من الروادف والأطباع . . .

على أن سعيداً لم يقطع عن لقاء العامة إذا جلس للناس ، فحدث عن بعض هذه المجالس أن في غزاة أني على طلحة بن عبد الله فقال : ما أجود طلحة ! . . . قال سعيد : إن من كان له مثل بساتينه لحقيق أن يكون جوادا . . . والله لو أن لي مثلها لأعاشكم الله بها عيشاً رغداً . فقال عبد الرحمن بن قيس ، وهو فني حدث : والله لو ددت أن لك ما كان لكسرى على نهر الفرات . فانتبهه أناس من الحاضرين وصاحوا به : أتمنى له سوادنا! وهاج الشر بينهم وبين أهل الفتي ، وسمع قومه من بني أسد يا أصابه لجاهدا وأحاطوا بالقصر ، وصادت القبائل بسعيد فاقسم ألا يقبض مجلسه أحد من أولئك الشافعين ودفعه أولئك النفر في بيوتهم وأقبلوا يقومون في عثمان^٢ . . .

وغاخير هذا الشغب إلى عثمان ، فاذن لسعيد في إخراجهم إلى الشام ، وكتب

أيام الجمع والناس مجتمعون في المسجد فيستخفون الأبا بهم ، ولا يستمعون لذي رأى يطل لهم ما يباع على كذب يبتهم ، وتضدى عمرو بن حريث - خليفة سعيد على الكوفة في غيابه - لتفيل ما زعموا ، فقام على النبر في يوم جمعة يتصح لهم ويرصهم بالمطاعة ولا من سمع .

قال القعقاع بن عمرو : فأورد السيل على أدرجه أهيهات ، والله لا يسكن الثرغاء إلا المشرقية ويوشك أن تنتفي ويحجون عجاج العبدان ، ويتنزون ما هم فيه اليوم فلا يرد الله عليهم أبدا ، فاصبره قال عمرو : فاصبره ، وتحول إلى منزله لا يأمر ولا ينهى .

هذه بداية تنبئها إلى نهايتها . بدأت في أوائل خلافة عثمان وتبينها إلى نهايتها قبل مقتله ، وما يبلغ من خطب هذه الغاشية أن تنفضي إلى مقتل رئيس دولة ، لولا شلوز في طبيعتها خرج بها عن سوانها وتمدى بها أطوارها . .

نعم . . هي غاشية مان خطبها لو أنها صادفت أميراً يعالجها بنظام الإمارة ، وهان خطبها لو أنها صادفت والياً مسؤولاً عن نظام ولايته مطلق اليد في دفع شواجر الفتنة عنها ، وقد عالج كل وال من ولاية ذلك المهمل ما وقع منها في ولايته ، فاستطاع أن يعرف عنه غائتها عاجلها معارضة ينفي القاتمين بها ، وعالجها عبد الرحمن بن خالد بناديب دعائها ، ولم يستفحل شروها في الكوفة إلا بعد أن غلب عنها واليها سعيد بن العاص ، ووقف دونها خليفة عمرو بن حريث مكتوف اليدين وهو يعيد عن مشورة عثمان ومشورة أمير الولاية سعيد ، ولو كان له أن يسكنها بالسيف كما قال القعقاع لا كان تسكنها كثيراً عليه ، ولكن القعقاع نفسه لم يشر عليه بامتناع السيف عى توقعه أن يعجز صحتها ، وإنا أئمار عليه أن يصير فصيح ، ولزم بيته لا يأمر ولا ينهى .

لقد كان خطب الغاشية هينا لو أخذها الأخذون بسلطان الإمارة أو بسلطان الولاية ، ولكنها قد جرى الحساب فيها على سنة الخلافة في عهد لا هو بعهد خلافة ولا بعهد عاكلة ، تتقاصر فيه حقوق الخليفة ولا يترطد فيه حق الملك ، وهذه هي النكبة الكبرى في صميمها .

وفي أمثلة الشراخير التي أشرنا إليها في عهد عمر وعهد عثمان كذلك مجال

لمعارية . أنا ابن خالد ، أنا ابن من قد عجمته الماحجمات ، أنا ابن طاق الرودة . . لا طير بك طيرة بعيدة المهوى . .

ثم أقامهم شهرا كلما ركب مشاهم معه ، وخافوه فاستقلوه وأعلنوا له قوتهم ، وسرح أحدهم - وهو الأشتر - إلى عثمان فخبيره عثمان أن يحل حيث شاء ، فاختار العودة إلى ولاية عبد الرحمن .

وحري في البصرة ما كان يرى في الكوفة من أسباب هؤلاء الروادف ، وكان في بعض قرى الولاية قاطع طريق يسمى حكيم بن جبلة العبدي يصاحب الجيش ثم يخفى عنه ويغير على أهل اللمة ، فشكاه أهل اللفة وروساء المسلمين إلى عثمان فكاتب إلى ابن عامر وإلى البصرة أن يحسه ومن كان مثله فلا يخرج من البصرة وحتى تأنسوا منهم وشداء فحبسه وتقيب خبره ، فجهاد النبأ ذات يوم أن رجلا يدعى ابن السوداء تزل عليه وأخذ يصرخ له ولا مثله بالظلم في عثمان وخلاته ، فدعا بابن السوداء فلما فإذا هو عبد الله بن سبأ ، يهودى من أهل اليمن يقول بدرجة التي إلى الدنيا ويظهر التشيع لعل . فسأله ابن عامر : من أنت؟ قال : رجل من أهل الكتاب رقت في الإسلام وفي جوارك . ثم أخرجه من البصرة لا علم من لبناء بالمسدين ليها ، فذهب إلى الكوفة يلوذ فيها بأشكال حكيم بن جبلة فأخرج منها ، وذهب إلى مصر فجعل يكاتب من تركهم في البصرة والكوفة . وأرى يهر إلى حران بن إبان وهو رجل موثور من عثمان ، كان قد تزوج امرأة في عندها نفقة عثمان بينهما وشره وسيره إلى البصرة ، فسعى هناك في ربيعة بين الروالي ورجل من التساسك ، واقتضح كذبه عليه ، فأخرج من البصرة ، وذهب يتروء بين الشام والحجاز ومصر ، فلقبه فيها ابن السوداء وأرى إليه وأدخله معه في مكاتبه وسعاباته ، وكثرت السعاية بين أهل الأمصار من الروادف وأشيائهم ، فمن تزل منهم بالشام أرضاه معارضة أو أخرجه ، ومن تحول عنها كاتب غيره للاجتماع في مكان لا رقابة عليهم فيه .

وحدث أن الكوفة خلت من واليها سعيد بن العاص وحلفه عمرو بن حريث ، فإذا يجمع للكتابين تلتقى فيها ، وإذا بأناس منهم يشتمون في الناس أن سعيدا عائد إليهم - وأنه ذهب إلى الخليفة يريد على نقصان رزق نسايتهم إلى مائة درهم ، ورد أولى البلاد من الجاهدين إلى ألفي درهم ، ويرغم أن ألفي من العراق يستأن قريش وأنها تأخذ منه ما تأخذ وتدع ما تدع ، وطلق دعاء متهم يذيعون هذه القلة

أما الملك فالسلطة هي قوامه عند ذويه سواء نعموا بالثقة طواعية أم خذلنهم هذه الثقة عن إكراه وكرامية ..

وقد وصلت الخلافة إلى عثمان وهو أخرج ما يكون إلى هذه الثقة ، وهي أقصى ما تكون عليه ..

سبقه بالخطر من عليه الناس خليفتان بلغت ثقة العامة والدمماء بهما غاية مبلغها ، فأبو بكر كان يحذر الدنيا على أولئك العامة وعصر كان يسلمهم منها ما يأمّن علاقته عليهم ، ولا يقدرّون على مخالفة لأنهم لا يشكون فيه ولا الشك فيه مقبول منهم إذا ..

أما هؤلاء فهم في خلافة عثمان منافسون ونظراء ، وخلافته بينهم على شرط معرض في كل لحظة للتأويل والحساب الميسر ..

وأما سواد الناس فقد شغلوا أولاً ثم فرغوا من الشغل للبطالة والملاحاة وكانهم زروا من بيزنطة سلاطينها معه محاك أجمل البيزنطى الذى تقرب به الأشكال ، ولا يؤمن سواد الناس مع البطالة والفرغ للقتل والقتال ...

وقد كانت سياسة أبى بكر وعمر أن يستبقيا العملية عندهم ، ويرسلوا الجند والقيادة على قدر إلى ميدان الجهاد ، وكان عمر يقتضب الولاية على الولاة مخالفة - كما قال - من أن يحمل قتل عقولهم على الناس ..

أما سياسة عثمان فقد اختلفت باختلاف الأحوال : سياسة عثمان كانت ترمى إلى إطلاق العملية في الأفاق أرضاء لهم وتوسلاً بجامعهم بين الدماء في كل قطر إلى تسديد النصيحة وحسن القيادة وإتقاء الفوضى ، وهو اجتهد منه ، له ولا ريب جانب من الصواب ..

وعزت عليه القسائية إلى الولاة مع الفراغ للدنيا بعد الجهاد ، فاختار للولاية أناساً من ذوى قرابته سبقت لهم ولاية في عهد الخليفتين السابقين ، عسى أن يصدقوه العون بحكم القرابة إن لم يصدقوه العون خالصاً لوجه الله ..

ولا اضطر إلى هذه الخطة حساب ضميره فعمل على تذليل القصر منها ، فلما كان حين وفد الوفود لكل مصر من الأمصار عليه وآل من ولاته الأقربين ، فهم يعيشون في أمصارهم ويحضر منهم من يشاء في موسم الحج ليرجع إليه بما يراه موزعاً

اللى الآخر الذى تفتقر فيه خطط الخلافة وضغط الملك من جانب الرعية ، قبل جانب الرعاة ، هو مثل الخلاف بين القائد بين القائد وحبيب في حروب أرمنية . فقد وجد النزاع على الرئاسة ووجد التنافس بين الأتباع ، ولكنهما وجدنا في موقف جهاد . فأرضى الموقف إلى المتنازعين والمتنافسين خير ما يصنعون بغير حاجة إلى مشورة الخليفة ، وهذه حادثة من حوادث عهد عثمان الذى اشتبكت فيه معالم الخلافة ومعاليم الملك وغلبت فيه معالم الملك على مطلب المصلحة أيام السلم بعيدا من جمعية الجهاد ومن خطر العدو المنحصر للانتفاض ، وقريباً من شهوات الدنيا وبطالة الفراغ ..

وقضى للخليفة الثالث ، باتساع دولته ودرء الأعداء عنها ، أن يتولى أصعب خلافة في صدر الإسلام ...

كانت ثورة الفرس والخرز والترك أول صدمة تلقاها ، وأكثر بها من صدمة تلقاها صاحب دولة في أول حكمه ، ولكنه ظفر بها وجازها بالدولة سليمة متينة فأسلمه للظفر إلى الصدمة الكبرى ، وهي صدمة الزلازل النفسية التى استحن بها رعاياه في بحيرة السلم والرخاء ، وكانت كلها طورا جليدا في حياة أولئك الرعايا . فلا هم رعايا خلافة ولا هم رعايا ملكة ، متراخين هنا ثورة وهناك ثورة أخرى ، بين بين ، على غير نظام متبع في حالة واحدة أو في الحالتين ..

وقد أتينا من قبل على قارق بين الخليفة والملك في محاسبة النفس على شئون الرعية ، ونأتى الآن على القارق أو القارق الشامل بين النظامين ، وهو القارق بين الثقة التى لا تحتاج إلى حنابة وبين السلطة التى تحمى نفسها ..

فالخليفة يعمل ما يشاء به والامتنان إليه ، بعمل اليوم ما يتفق به غدا ولا ملامة عليه ، مادام عمله اليوم والأمر لغيره لا لنفسه ، والمصلحة العظمى التى لا يناله منها نصيب غير نصيبه المقدور ، وقد يرضى هو لنفسه بأقل من ذلك النصيب ..

رعية تتق بخلقيتها وخليفة يتق برعيته ، ولكنه لا يبلى إلا يشقوا به إن كان على طمأنينة بينة وبين ضميره وبين الله على السنة الإلهية التى يعلمها من أحكام دينه ..

أما أن عثمان لم يشترك في هذا التفسير بعمل من عنده فذلك هو الطرف الآخر من طرفي الباطل والادعاء ..

إنما أفة عثمان أنه لم يخل من الأموية ولم يكن أمويًا وكفاية ..
فمن خلاله الأموية حب القرابة فهو مبلغ في إثارة لدوى قرياه ..
ومن خلاله الأموية تلك الطبيعة المعلمية، التي لم يكن للأسرة فكاهتها ..
لقد كان أبو سفيان يخطط بين النبوة والملك فيقول للمباس : فلتدع أصبح ملك ابن أخيك عظيماء ..

وكان ينظر إلى مال النوى بين يدي رسول الله فيقول للرسول عليه السلام : فلتدع أصبحت أكثر قريش مالا ..

وروى عن الحسن أن أبا سفيان دخل على عثمان رضى الله عنه حين صارت الخلافة إليه فقال : وقد صارت إليك بعد تيم وعذنى ، فأدركها كالكرة واجعل أولادها بنى أمية ، فلما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار . فانتهره عثمان وأخرجته مطرودا من عنده ..

إن عثمان لا نزه نفسا وأظهر عقيدة من مثل هذه النزعة الدينية ، ولكنه سلم من شر ما في «الأموية» ولم يسلم من ميراثها بإجمعه ، فكانت له نظيرة إلى الإمامة فاختارت أن تكون نظيرة إلى الملك ، وكان يقول لابن مسعود كلما فتح عليه في الخاسية : «مالك وليت مالا؟» .. وفان في حطبه الكبيرى يرد على من حاذوه بهياته الجزيلة في إيشاء ذى القربى على رواية الطبرى : «فضل من مال ، فلم لا أصبح فى الفضل ما أريد ، فلم كنت إماما؟» ..

تعد كاد في هذا المثال أن يرقا الخلافة برقعة من الملك ، وسالت به طبيعة المعمر كله إلى بقية من النزعة الأموية فكاد الملك والخلافة لديه يلتقيان في حساب الأموال ..

على أنه مع هذا التوسع في فهم حقوق الإمامة لم يثبت أنه أبقى المال في غير مصالح الأمة كما يقدمها ويؤلفه على تقديرها الكثيرون من المحدثين الذين شأوا في عصر الانقضاء وتقسيم الموارد والمروقات على حسب مرافق الدولة ، ونبذوا على التحقق أنه أبقى من ماله الخاص - قبل الخلافة وبعدما - لاستصلاح أمور

للمراجعة من أموال مصر ، وهذه تخطئه التي أقرها للطامنية إلى ولائه والطامنية على رعاياه ..

والذى شاع عن عثمان - وما أسهل الإشاعة - أنه كان يثنى ذوى النراء ولا يبالي المتبرين والضعفاء ، والذي كان يحدث منه فعلا أنه يفتقب للظالمين ويحصى الظلمون فيهم من أهل الذمة وأهل الحاجة والثرية ، فمن أجل أهل الضيقة غفب الفقاصيون حين حصى لها الرعى ، وراد في موعاها على حسب ربايتها . ومن أجل أهل الذمة غفب الشغار من قبيل حكيم بن جبلة لأنه أذهم وأمر بحسبهم وبهاهم عن أموال أهل الذمة وهم يحسبونها خلافا مباحا ليس يسطر عليها ، وكان روط البعدين من الكوفة إلى الشام يحاور معاوية في هذه الأموال فينبهاهم عنها ويكتب عنهم إلى عثمان أنهم «لا يتكلمون بحجة وإنما همهم للفتنة وأموال أهل الذمة» .

فما الرزق الخلال فقد فرض لأصحابه ضعف ما كانوا يأخذونه من الأعلى يوم نزلت الخلافة ، ولم يعملها سياسة بل فعلها إيمانا بالصواب في هذه الزيادة ، وقد كان هو في عهد الفاروق أول من قال بكثرة المال وأشار عليه برصد الأسما وتوفية كل ذى حق حقه من المعطاء خشية النسيان والتكرار ..

وقد تعود المورخون أن يقسموا عهد عثمان قسمين : قسم الإصلاح والرضى ، وقسم الخلل والمكايه . ولم على صواب في تقسيم هذا وإن لم يصب منهم من قال انهما قريبان أيام الكهولة وأيام الشيخوخة في حياة عثمان .

فما راع أن عثمان كان شيخا جاوز السبعين على أرجح الأقوال في كلا القسمين ، ولكن الفرق الصحيح بين السنوات الأولى والسنوات الأخيرة من عهده أن الناس كانوا في سنوات الأعداء بدفع الأعداء في السنوات الأولى ، وأنهم فرغوا للجدل والملاحة في السنوات الأخيرة ، وأن اتهام الولاة أسر من اتهام القادة الحروب .. القتال ، وقد صارت الرئاسة كلها إلى الولاة بعد المعركة بينهم وبين قادة الحروب .. ولم يأت هذا التفسير في الطوار التفوس من جانب واحد ولا من الرعية وحدها دون راعيها ، فحسب طالب الحقيقة أن يعلم أنه لم يأت كله من جانب عثمان ، وأن الرعية تغيرت فلم تصبح رعية خلية ، وهي محاسب ولي أمورها بيزان الخلال ..

عامة من خصائص بيت المال ، وقد تمحج أشد التمحج من إنفاق المال على حرمين يحميهم في أسوأ أيام الفتنة ، ولم أنه فعل لما خالف بذلك سنة الحكم في نظام من النظام الحكومية .

وكانت له «سياسة اقتصادية» يلاحظ فيها تدبير المرافق العامة وتيسير التجارة والعمارة ، ومنها إصلاح ميناء جدة وتهذيب الطرق وإقامة الشرطة في الخفاقر وتنظيم الأسواق . .

ومهما يقل القاضون عن ترخصه في العطاء ، وبطل الرواتب من بيت المال فلا قول لأحد في حرمة الحياة عنده حتى فيما يخص منه الجور على حياته ، فما طارعه ضميمه على إيقاع حكم الموت بإنسان عن استحقا هذا الحكم بالشغب والمصيان ، ومن لاهه في هذا الباب فإنما يلومه لأنه أفرط في الرحمة والأناة ، ولا يلومه لأنه قسا قفصا عن الإفراط في القسوة . .

والشفقة التي يلقاها الموزخون في هذا الصدد عظيمة متعينة ، لأن الغالب في الموزخين أنهم يستسهلون الرأي كلما كتبوا عن رجل اشتهر بصفة من الصفات ، وهم على دأبهم هذا قد يستسهلون الرأي في تقدير سياسة عثمان بعد السنوات الأولى من خلافته على الخصوص ، فما كان عملا وتديبرا فليس أسهل من إسناده إلى أمواته ، وما كان نزانيا وتفریطا فليس أسهل من إسناده إليه ، وإن أسئلوه إليه ليقولوا إنه غلب عليه . .

وتخضرت في هذا المقام مساجلة بين بعض الصحاب سمعناها عن ضعف عثمان وتيسير الناصحين له من حزبه ومن غير حزبه ، وإحدى الدلالات على ذلك أنه تآب ثم عدل عن التوبة مرات في عامه الأخير . .

والأمر الذي نسب أصحاب هذه الدلالة أن التوبة شيء لم يطلب قط من أحد في تلك الأوتة إلا استجاب إليه ، وما قيل لأحد قط تب إلى الله فأجاب على ذلك بخير التوبة والاستغفار ، فما كان منهم من أحد يرى أنه غش عن الاستغفار وكفكير الذنوب في وقت من الأوقات ، أو كان يستعلى عن الوقوف أمام الله موقف التوبة والتندامة ، ما كانت تزيات عثمان إلا من هذا القبيل كلما دعى إليها في أيامه الأخيرة ، فإنما هي توبة لله ولما الله . ولا عليه أن يعيدها في اليوم مرات بعد مرات . .

فمن تيسير الموزخ على نفسه أن يحيل عمل عثمان وتديبره على الأعوان والنصحاء ، وأن يحيل التواني والتفریط إليه أو إلى غلبة الأعوان عليه ، ولا سيما السئول الأكبر في رأى الأكثرين عن أخطاء عثمان ، ابن عمه مروان . .

فما كان لمروان هذا من القوة ما أسبغ عليه المداحون بعد قيام الدولة الأموية ، ولم تكن له هذه القوة حتى في مقامع الملك وهمم السيادة والرئاسة ، فإنه كان يزاحم معاوية فلم يستطع أن يبلغ معه كثيرا ولا قليلا ، وراح يحرض عسرو بن عثمان لينأوى معاوية ويقول له إنه لم يأخذ الخلافة إلا باسم أبيك ثم يتزوى ولا يجسر على الظهور . . ولم يبارقه هذا الحمول بعد موت معاوية وابنه يزيد ، فكاد أن يبايع عبد الله بن الزبير بالخلافة لولا النزاع بين اليمانية والقيسية في الشام . .

وقد أودى حمقه بحياته بعد أن صارت الخلافة إليه ذلك المصير الذي لا فضل له فيه . فقد خشى أن يكبر خالد بن يزيد بن معاوية فيتنازعه سريره ، فلم تهدد حينئذ إلى عمل يحناط به لهذه المنازعة غير أن يتزوج أمه ليصنره ويلحقه بأبناؤه ، وأمن في هذه الحيلة لا كبير خالدا فقال له على مسمع من أشرف القوم : مالك ولهذا يابن الرطبة . . فكان فيها حشفه ، وقيل إن خالدا أخبر أمه فقالت له : لا تعلمن أحد أنك أخبرتني ، ثم وضعت على رأس مروان وسادة ولم ترفعها حتى مات . .

فمروان هذا ليس بالمون الغالب الذي لا يخالف ، وليس هو على الأقل بالذي ينسب إليه الرفق في تسيير الناس للقتال متطوعين ، أو الرفق في محاسبة الخصوم والشائرين أو بدل العطاء لمن ينافقهم وينافسونه من رؤساء بيت العاصم أو بيت حرب في بني أمية ، وغاية شأنه أنه المأمور الذي لا يستعاض عنه ممن هو أنصح منه وأقدر على الطاعة وأعرف بما كان وماهو كائن من أخبار العاصمة وأحوال الولايات لعلول المراسلة والمباشرة ، ومن كان يحسب أن مشورته السيئة هي علة الملل في محنة عثمان ، فعليه أن يلقي هذه المشورة ويفترض أنه لم يقل بها ولم تسمع منه ثم لينظر ماذا يقدم هذا أو يؤخر من أزمة الحكم ومن فاجعة عثمان . .

إنما الحنة كلها أنه زمن كان يحتاج حينئذ إلى نقة الخلافة فلا يجدها ، ويحتاج حينئذ آخر ، أو في الحين نفسه ، إلى سلطة الملك فلا يجدها ، ولن يسلم حكم يحتاج إلى سند الثقة في موضعه أو إلى سند السلطة في موقعه ، فلا يجد هذا ولا ذاك . .

النتيجة

ثالثا في الفصل الاول من هذا الكتاب : بان العمودية الكبرى اثنا في هذه الفترة امام حادثين يرتجح كل منهما الى اسبابه وعوامله ، ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الاسباب والعوامل ، هذان الحادان هما التطور الاجتماعي ومقتل عثمان رضي الله عنه ، واسباب هذا لا تكفي لتعميل ذلك وليس من الختم أن تؤدي إليه .

ومقتل عثمان لا يوصف بأكثر من أنه ومشافية دهماه لم تجد من يكجها . .
أما التطور الاجتماعي فلا بد من التفرقة في تعمله بين لفظ الاسنة في جبهه وبين البراعم الحقيقية التي عملت فيها عملها الفعال ولم تعمل فيه باداهة بالمسنة الملاغين في ذلك الحين .

إنهم انطوا يومئذ بسيادة قريش ، وانطوا بالأموال التي اغدقوا ولاه الأمور على الانصار والأشياخ ، وانطوا بإثار الصنائع وفوى القربى . .

ولم يكن شيء من هذا اللغظ على التطور الاجتماعي الذي بدأ بعد دعوة الإسلام وانتهى بقيام الدولة الأموية .

فالذين شغبوا على عثمان جارا من البصرة والكوفة ومصر لسياسوا واحدا من ثلاثة هم الزبير وطلحة وعلى ، وكلهم من قريش .

ودولة بني أمية قامت بعد ذلك وهي دولة قريشية غالية في عصبيتها .

والذين ثاروا على بني أمية إنما ثاروا باسم بني هاشم وهم قريشيون ومن بني هاشم قامت دولة العباسيين ودولة الفاطميين .

وبعد نحو مائة سنة من مقتل عثمان قام بالأمور في الأندلس وصغر قريش ، عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، فبايعه العرب والزبير لأنه من سلالة قريشية . . .

فلا يكفي أن يلتقط بالنقمة على قريش مسامرون في مجلس أو لا يظنون في طريق ، ليقال إن التطور الاجتماعي أيام عثمان إنما كان مدارا على الضجر من قريش والرغبة في الخلاص من سيادتها .

عمل من أخلق الأعمال أن يوصف بأنه وعمل عثمان في الإقدام عليه وفي أثره .

فهذه الجرأة الحق شيء أن بانغت إليه من كانوا يحسبون أن صفة الرحمة أو صفة الطيبة تحجب الشجاعة وتتق صاحبها عن تبعته إذا أس بها . .

وهذا العمل - في اختلاف تقديره وأثره - مثال من أعمال عثمان كافة ، إذ كان معدودا عليه من أكبر السيئات ، ولم يبق لشعثان حسنة أعظم منه في تاريخ الإسلام .

لأتهاب الخلافات ، فاختلافه تقول إنها لاتهابك!! ولم يعرف عن إنسان أنه اعتذر لمصاحبي من الإساءة إليه كما اعتذر عثمان لابن مسعود إلى يوم وفاته ، وهو غاية ما يستطيع .

إذا كان أساس البرى كلها سهولة الشكوى ، فيومئذ يظهر بالشكوى من كان حقه أن يتواري بها من أصحاب الترات والذنوب ، ولكن مساحة عثمان أطمعتهم في الظهور ورسولت لن شاء منهم أن يجترئ عليه مع الشاكين والمذمومين ، وأعجب العجب في هؤلاء قسسته مع محمد بن أبي حنيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قريب عثمان وزبيته في داره . فإن الناس قد ولعوا بالكلام على محابة عثمان لأقربائه وهذا واحد من أقرب الأقربين إليه أقام عليه الحد لأنه أصاب شرباً ، ثم جاءه يطلب منه ولاية فأباهها عليه وقال له : لو كنت أهلاً لذلك لوبتلك! فكان هذا زعيم الثائرين عليه في عصره ونثر من ذرى قرياء .

ومنهم من عاقبه عثمان لأنه كان يلعب بالنيرنجيات ، ومن عاقبه لأنه تزوج بامرأة في عدتها ، ومنهم من عزله كعمرو بن العاص فكان أحكم من أن يجهر بالشغب عليه ، ولكنه كان يدعو جهرة إلى التوبة وهي دعوة أشبه ما تكون بالاتهام الصريح .

ومنهم من كان يجره ولاه عثمان لأنه كان يهذر في الدين بما لا يعلم ، أو يهذر فيه بما يعلم أنه الباطل ويفسر من ورائه سوء النية ، كعبد الله بن سبأ المشهور بأبن السوداء ، فقد أخرجه الولاية من بلد إلى بلد لأنه كان يقول برجمة النبي إلى الدنيا وحلول روح الله في علي ، وقد كان علي رضى الله عنه أشد على ابن السوداء هذا من عثمان ولولاه .

وبين هؤلاء الشاكين يُسمع النصيح الصادق من رجل كائى قد برع به البلخ والترف ، ويدعو إلى التقوى والصلاح ، وينعى على الذين يكتزون الذهب والفضة ويحبسونها عن الخير والصدقة ، لتحطب صيخته على عثمان ولأقل لشمان بتغير الزمن وتبديل الألوان ، وقد حذر منه قبل أوانه الصديق ، ثم حذر منه الماروق

أن عبد الله بن أبي السرح كان أخص الكفاة في قيادته ، وأنه انتصر حيث قاد جيشاً في البر أو في البحر ، ومع الروم أو مع أهل إفريقية ، وزعموا أن عثمان نفل مروان بن الحكم بخمسة الفناثم التي أرسلها ابن أبي السرح من إفريقية ، وهو غير صحيح ، وإنما الصحيح أن ابن أبي السرح أخرج الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فانفذها إلى المدينة ، فاشتراها مروان وبقيت من ثمنها الأثاث والثأشبة يثقل حملها إلى المدينة ، فاشتراها مروان وبقيت من ثمنها بقية عنده فوهبها له عثمان يوم بشره بفتح إفريقية ، والناس على وجل من أخبار المغارات عليها .

وكقصة ابن أبي السرح قصة الحكم بن العاص الذي رخص له عثمان في العودة إلى المدينة بعد أن نقاه النبي عليه السلام عنها ، فأبنا أبي النبي أن يساكنه في المدينة ، ثم وعد عثمان أن يعفو عنه ولا حرج من مقامه حيث لا مساكدة له عليه السلام بعد وفاته . فقد أذن له بالعام في الطائف حيث لا يسكن معه وهي أحب في سكنها وأشهى .

ومن هذه الشكايات التي يبحث عنها الباحث ، أنه ولي الوليد بن عقبة لقريبه ثم اتهم بشرب الخمر وثبتت عليه التهمة . . . فلما أنه هو الذي ولاه فغير صحيح لأنه كان مولى من قبل عمر ، ولما أنه شرب الخمر فقد أقام عليه عثمان الحد وعزله ، ولا يطلب من الإمام أكثر من ذلك . .

ولاموه لأنه لم يقتض من عبيد الله بن عمر لقتله الهرمزان المتهم بالشمر على قتل أبيه ، رأيا كان وجه العدل في هذه القضية لقد كان لوامه على قتلى عبيد الله لو أنه أخذ بالهرمزان أكثر من عازريه ، فما كان أكثر من يقول يومئذ أن عمر قتل بالأمس وابنه يقتل اليوم ، وقد كان عذر عثمان في ترك عبد الله أنه دفع الفتنة ، فاطلقه ولا يقض على قتل أبيه أيام ، ودفع الفتنة ولا ريب من من حقوق الإمام .

وذكروا أنه أبعاد أناسا من الصحابة عن مسألتهم أو عن أصماليهم ولم يذكرها أنهم اغفلوا له في القول ولم يوقروه ، وقد ضرب عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص لأنه لم يقف له في مجلس الخلافة ، وقال له : إنك أردت أن تقول إنك

فيجعلهم في حيرة من أمرهم : إن دخلوا في أمر الفتنة على عزم وقوة لم يأمنوا النعم ، وإن تجنّبوا الأمر كله عولوا عثمان حتى يشعر الناس بعزلته ، وقد ظن من ظن بعد تفاقم الشر أن عثمان إنما صرف من تطوعوا لحراسته في داره لأنه لم يكن على طمأنينة من جانبهم ، فغرقوا وأحس الشاغبون حول الدار من نفوذهم كأنهم خائضوه .

ومن الإنصاف له أن يقال أن تفصيره في حق نفسه كان أكبر من تفصيره في حق رعيته ، فقد أوطق في المسألة واعتقر مالا يفتر من العدوان عليه في حضرته ، وخرج غاية التخرج من البطش بمساخير الفتنة لأنه لم يكن من الضرور بحيث يترى نفسه من تبعه مسخطهم ولم يكن من الأثرة بحيث يذأ عن نفسه الخطر وهو لا يبالي أكان على خطأ أم كان على صواب . .

ولا نحسب نحن من أخطائه أنه أمر على الإمامة وأبى أن يترك عنها وقال لن أندوه القتل إن هو لم يتنزل ، أنه لا يطع قبيصاً البسه الله إياه ، فقد عزا بعضهم هذا الإصرار إلى وصية النبي له في مرض وفاته ، وعزا بعضهم إلى يقينه من الموت وبأسه من جدوى الاعتزال على رعيته ، وأياً ما كان فإنه على الإصرار فهو الباعث الذي لا يعزى إلى الأثرة ولا يفسره إلا الإيثار في سبيل ما اعتقده واجباً عليه ، حتى الإيثار على الحياة . .

ومن الغفول في سيرة تدور على تحليل الشخصية أن نطيل في سرد أحداث الفتنة التي انتهت بقتله ، وأن نحصر أسماء من تكالبوا ومن دعا منهم ومن أجاب ، فكل ما رواه المؤرخون من هذه الأحداث يدل على مؤامرة بين وفود الأمصار ، عملت فيها الدعاية والاستشارة وعملت فيها الشعوبية والفسالة المدبرة ، ولم تكن قط في مصلحة رأس من رؤوس الصحابة الكبار فيميل الظن إلى اتهامه بالتدبير ، فإن الفتنة التي يلفظ فيها بالثورة على قرش لن تكون من تدبير القرشيين ، وأن الفتنة التي يشموز بها أصحاب الفسالة عن يزعجون أنهم من دعاة على لن تقلد عليها عبد المؤمنين ولن يرضاهما على لدينه ولا لديناه . .

وجله الصحابة الأكرمين . ولا شيء يجنى من تلك الصيحة إلا أن على للشاغبيين في شغبهم ، وهم لا يصدقون صدق أبي ذر ولا يتقنون تقواه .

ولقد اشتهر على عثمان بالصرع على أيدي الشاغبيين وكان عمرو بن العاص أول من قال له أنه قد لا ن لهم في المقال ولم يجزهم بما استحقوه من جزاء ، ومن محنة الإمامة في تلك الزمن أن يلام الإمام على التقيضين : على الرافة بالشاكين وعلى أن أنفسهم ولم يجزهم إلى ما سألوه .

ولا جميع مجلسه للشورى كان من ناصحيه من أشار عليه بأن يشغل الناس بالجهاد ، فلم يرض أن يكون الجهاد سياسة يحمى بها نفسه ويشغل بها المشاغلين عليه . .

وكان من ناصحيه من أشار عليه باتخاذ الخرس أو بالسفر إلى الشام ، فلم يفعل هذا ولا ذاك .

وكان رأى على أن يشتد في حساب الولاة ، وأن يعزل منهم من تخرج في الولاية منهجاً لم يكن يرضاه قبله الفارق ولا الصديق ، ولو فعل لعزل معاوية أول من عزل ، ولكن ولاية معاوية في الشام كانت أقل الولايات شغباً عليه . .

وللسائل في أمثال هذه المازق أن يسأل : ففعل عثمان هذا أو ذاك فسخطوا عليه ، فهل يرضون عنه لو لم يفعل هذا وذاك ؟ .

واليقين في رأينا أن الرضى عنه في أمثال ذلك المازق مطلق لا يراد ، لأن أساس البلاء كله سهولة الشكوى من الدماء ، ومضى سهلت الشكوى فالإعراض عنها محنة ، واستجابتها محتان ، لأنها تغري بالشكوى من جديد وتزيد البلاء بزيادة السهولة طمعاً في دوام الصفاء .

ونحسب على عثمان أخطاء ومئات جنت عليه ، وساعدت من أراد أن يجنى عليه بالحق وبالباطل ، منها توسعه في حقوق الإمامة ، وتوسعه في معيشة الدنيا بعد تخليفتين كانا مثالا في التشف والرضى بالتعليل ، وقد توسع كذلك في تقريب ذوي قرائته واصطفائهم لأعماله وبطانته ، ولم يردعهم أن يجتنبوا كبار الصحابة من أمثال على وعبد الرحمن بن عوف بسوء الظنة والتهمة الجارة ،

وإن وجبت كتابة السير ، فأوجب ما يوجبها أن تكشف جانب الخير في أغوار النفس الإنسانية ، لا قصيدة مديح كما يقال بل تحية صدق بالشار والتور بين ظلمات الشرور . وهذه السيرة الرابعة من سير الخلفاء الراشدين لا نسميها بالعقريه كما سميها عقريه عمر وعقريه الإمام وعقريه الصديق ، لأنها لا تؤمن بالعقريه لعثمان رضي الله عنه ، وتؤمن في الحق أنه ذو التورين : نور اليقين وتور الأريحية والخلق الأمين ، ومن أضي عليه سيزانه أن يحابي في كلمة تستند عليها الجارات لا سبقها من الكلمات لن ينظم قصائد المديح في محراب التاريخ ، فحسب النفس البشرية أملا أنها غنية بالحق عن قصائد المديح في هذا الخراب ..

إنما هو شعب غرضه لا رأس له ولا قدم ، ووجود التدبير وراء هذا الشعب الأعمى هو الذي يوحى إلى المؤرخ أن يبدأ كانت تعمل فيه لغص الشعب وإلى غير نتيجة إلا أن يقصد الأمر على الدولة الإسلامية ، وتحوم الشبهات من أجل هذا حول ابن السوداء ومن كانوا يستمعون إليه من شذاذة الأمصار الذين قيل فيهم : « ولا تدرك أعرب هم أم عجم ومسلمون هم أم مفسدون مدسوسون على الإسلام » .

ثم بلغ الكتاب أجله بقصة ذلك الكتاب الذي قيل أنهم وجدوه مع غلام لعثمان بأمر فيه وإلى مصر أن يكل بقيادة الوفد الذي عاد من عند عثمان .. عاد وفد مصر من عند عثمان موعودا بما يرضيه ، ثم لم يلبث أن قفل ومعه كتاب مختوم بخاتم عثمان يأمر فيه بجلد وعيد الرحمن بن عيسى وعمر بن الخطاب وعروة بن الخطاب وجسمهم وخلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم^٤ . ولم يمد وفد مصر وحده بل عاد معه وفد للكوفة ووفد البصرة وهم مقترون في الطريق ، ولم يفت عليا أن يسألهم عن هذا الملتقى العجيب ، إن صحت قصة الكتاب^٥

وحان المصير الأليم الذي لا تحب أن تطيل النظر فيه ، فإن تربينا بعده هنيهة فإنما تترتب لاستخراج العزاء لبني الإنسان من الشر المركز في طبيعة الإنسان .. لن كان مصرع عثمان شرا مطبقا ، لقد كان كجميع الشرور ، يتولى على خير يبقى بعد زوال الغاشية في حياة فرد أو أفراد ..

كان الخير في ذلك الحق الذي أمن به من لا يحسنونه ، فأرهم أنهم أهل لحساب ولي الأمر وهو يسطر سلطانه من نخوم الصين إلى بحر الظلمات ..

وكان الخير فيه ذلك الإيمان الصادق الذي صمد به شيخ في التسعين للكرب الحق به وهو طمان محصور في داره بغير نصير ، ولو شاء لكان له ألوف من النصاراء يرقون الجحار من الدماء ، حيث عزت قلعة الماء ..

الفهرس

الصفحة

الموضوع

الفصل الأول

- ١ - على العهد
٢ - بين القيم والحوادث
٣ - بعد الصدمة
٤ - أسباب وأسباب

الفصل الثاني

- ٥ - بين الجاهلية والإسلام
٦ - نشأته وشخصيته
٧ - ثقافة عثمان

الفصل الثالث

- ٨ - من إسلامه إلى خلافته

الفصل الرابع

- ٩ - المباعدة
١٠ - الخلافة
١١ - مصحف الإمام أو مصحف عثمان
١٢ - النهاية
١٣ -